منشورات اختلاف -16-

الرفيق أبو خَمْرَة
و
الشيخ أبو نَهْدَة

(رواية)

محمد الهلالي

صدر للمؤلف:

- " أناشيد للحرية والوطن " (شعر)، 1986، المطبعة المركزية، وجدة.
- " حقوق الإنسان من سقراط إلى ماركس " (ترجمة)، 1995، منشورات اختلاف 1.
- " الفلسفة " (نصوص فلسفية، ترجمة)، 1996، المغاربية إتقان، سلا.
- " حقوق الإنسان من سقراط إلى ماركس " (ترجمة)، 1999، طبعة ثانية، أمبريال، الرباط
- " ماهو المجتمع المدني " (تأليف وترجمة بالإشتراك)،1999، أمبريال، الرباط.
- " ابن خلدون من منظور آخر " (ترجمة بالإشتراك)، 2000، دار توبقال، البيضاء
- ونشر منذ سنة 1989 عدة مقالات في عدة جرائد (أنوال، الأنوار، العرب، المنظمة، التضامن، اليسار الديمقراطي، المستقبل) وفي عدة مجلات (اختلاف، الحرية، كراس، نوافذ، الغد، فلسفة، فكر ونقد).
- كما أشرف على إدارة مجلة اختلاف (1991- 1994) ومجلة الحرية (1995)
- اليساريون الثوريون بالمغرب، 2001، منشورات اختلاف 7.
- " مأوى الفقراء " ، ترجمة لرواية الطاهر بن جلون، 2001، دار توبقال،
- يُشرف على إصدار منشورات "اختلاف".

***

العنوان: الرفيق أبو خمرة والشيخ أبو نهدة

المؤلف: محمد الهلالي / الطبعة الأولى: 2002 /

رقم الإيداع القانوني: 2002/1288

الناشر: منشورات "اختلاف" -ص،ب: 4407 - الصخيرات - 12050 -

المغرب - (editikhtilaf@yahoo.fr)

مطبعة: المتقي برينتر - المحمدية / توزيع: سوشبريس
***

1

أوقفتْ سيارتها أمام باب المقبرة. لم تعبأ بنباح الكلاب كالعادة. ألقتْ نظرة بطيئة على امتداد اصطفاف القبور وابتسمتْ. تقدمت إلى داخل المقبرة بخطى أكيدة. ولما توسطت المكان صرخت:

– أيها الحفار... أين أنت... يا حارس الأحياء في قبورهم... أين أنت؟ هل تخاف من الليل؟

سمـعتْ وقع خطوات تقتـرب منها، ثم فجـأة سُلط عليهـا ضوء خافت.

- من؟ سـيـدتي! أهلا... لا توجـد أية امـرأة لا في الدنيـا ولا في الآخرة غيرك يمكنها أن تلج المقبرة ليلا... أنا لا أصدق أنك آدمية...

اقتـرب الحفـار منها. وضع قنديلـه على الأرض فوق قبـر زُينت جنباته بالإسمنت. تأملتْ جلبابه الجديد وحذاءه العسكري الجيد. وقبل أن تتفوه بأي شيء قال لها:

- لقد حفرتُ القبر السابع يا سـيدتي كما أمرتني في آخر زيارة لك. لكنني لا أفهم شيـئا... سبعة قبور ياسـيدتي لك وحدك... كلها فارغة تنتظرك... هل هي مُعدة للجن أو للإنس... هل أنتِ ساحرة... بالله عليك، لقد تحدثت عنكِ لزوجتي. فقالت لي أنكِ جنية مؤمنة... مادمتِ تحبين الخير للناس. وأضافتْ أنه علي أن أنفذ ما تأمرين به حتى لا تصيبنا لعنة غضبك.

- ألم تغر مني زوجتك؟

- كـلا. فـهي تقـول أنه من العـيب أن تغـار المرأة من الجنيـات وخاصة إذا كُنَّ مؤمنات بالله ورسله وكتـبه واليوم الآخر وبالقدر

خيره وشره...

- وإذا طلبتُ منك أن تتزوجني... فهل تقبل؟

ضحك الحفار ملء شدقيه. جلس قرب القنديل ونظف بيديه مكانا لتجلسَ فيه.

- أنتِ ياسيدتي لا يمكنك الزواج بأي كان. أنت قوية وشجاعة. وحتى إذا لم تكوني جنية، فبكل تأكيد ستكونين آهلة بالجن. فجمالك أخّاذ، ونظراتك مخيفة. ولا أعتقد أن هناك في الدنيا رجل بإمكانه أن يعيش في أمان معك...!

- ربما يكون الفرق الوحيد بيني وبين النساء الأخريات هو أنني لا أخاف!

- كلا يا سيدتي... الأمر أعقد مما تقولين. فأنتِ تُخفين أسرارا، وتقولين كلاما غير مفهوم، وتقومين بأشياء غير معقولة. إسأليني أنا حفار القبور، حارس الموتى في مساكنهم... أنا أعرف الأحياء والأموات. أنا الذي قضيت أكثر من نصف حياتي صحبة الصمت والصامتين... في كثير من الأحيان ينتابني قلق وخوف. فأخرج من البيت وأدخل المقبرة بعد منتصف الليل، وأفكر في كل هؤلاء الذين

يُحاسبـون ويعاقبون داخل القـبور... أحيانا يُخـيل لي أنني أسمع استنطاق الـمَلَك عزرائيل لأحد الموتى:

- من هو ربك؟

- الله.

- من هو نبيك؟

- محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- ما هي شهادتك؟

- أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

- ما الفرق بينك وبين الحمار؟

- العقل والتمييز ورد الكلام.

وأحيانا أخرى أسمع صراخا وعـويلا، ضحكات وقهقهات. لكني لم أسمع أبدا نســاء يضحكن. وتأكدت من أن كل النساء مـذنبات. لا أعـرف لماذا، ففي الدنيـا هناك نســاء أفضل من الرجـال في المروءة والكرامة والعفة.. لكن ربما في الآخرة هناك أمور أجهلها... فسِّري لي ياسيدتي هذا اللغز، لماذا لم أسـمع ولو مرة واحدة امرأة تضحك

في قبرها؟

– الأمر بسيط يا رجل... فهي ممنوع عليها أن ترفع صوتها في حضرة رجل. ألا يكون معها مَلكٌ يستنطقها ويسألها عن شؤون دينها وما صنعت في دنياها؟

– لكن...

– اتركنا من هذا الآن... انزع حذائي ومَسِّد رجلي، فأنا أحب أن أحس بقوة يديك العنيفتين وهما تدلكان قدمي.

بسطتْ رجليها. استلقتْ على ظهرها جاعلة من القبر وسادة لها. نزع الحفار حذاءها بلطف. ثم بدأ يدلك قدميها بعناية فائقة. أحست بمتعة وراحة في كل موضع أصابته عملية الدلك. ولما شعر بأنها أصبحت أسيرته سألها:

– من كان يدلك هذين القدمين الجميلتين يا سيدتي!

لم تجبه على الفور. أحست بوجاهة سؤاله. ولكنها لم تكن تتوقع أن تكون له الشجاعة ليباغتها بهذا الشكل. شعر هو بالخوف. ندم على فعلته. وفجأة سألته:

– هل أنت أقرب إلى الأموات أم إلى الأحياء؟

– لم أفهم قصدك يا سيدتي.

– هل تشعر بالراحة مع الأحياء أم مع الأموات؟

توقف لحظة عن المسد. أشارت بيدها بأن يستأنف العملية. فكر قليلا وأجابها:

– عاشرت هؤلاء الأموات سنين طويلة. أحدثهم رغم أنهم لا يجيبون. أحمي مساكنهم رغم أنهم لا يرونني. ولكن ما أستغرب له هو أنني لا أميز فيما بينهم إلا حسب جنازة كل واحد منهم. فهم لم يتساووا أبدا عندي. الغني فيهم يظل غنيا. والفقير يظل فقيرا. حاولت مرارا وتكرارا أن أزيل من رأسي هذه الأمور ولكنني عجزت. ولم أفهم أي شيء. أنا أشعر بالهدوء في وسطهم. لا صراخ. لا عويل. لا ضجيج. ولا مجادلات متعبة ولا قذف ولا شتم. ورغم ذلك أشعر بالغربة. فأنا منهم ولست منهم. وهم لا يعرفونني. ولا يمكنهم أن يشعروني بأهمية ما أفعله لصالحهم.

قاطعته قائلة:

– هناك، في ذلك الموضع، أحس بألم مزعج. أدلكه بلطف، تماما،

– هل أنت أقرب إلى الأموات أم إلى الأحياء؟

– لم أفهم قصدك يا سيدتي.

– هل تشعر بالراحة مع الأحياء أم مع الأموات؟

توقف لحظة عن المسد. أشارت بيدها بأن يستأنف العملية. فكر قليلا وأجابها:

– عاشرت هؤلاء الأموات سنين طويلة. أحدثهم رغم أنهم لا يجيبون. أحمي مساكنهم رغم أنهم لا يرونني. ولكن ما أستغرب له هو أنني لا أميز فيما بينهم إلا حسب جنازة كل واحد منهم. فهم لم يتساووا أبدا عندي. الغني فيهم يظل غنيا. والفقير يظل فقيرا. حاولت مرارا وتكرارا أن أزيل من رأسي هذه الأمور ولكنني عجزت. ولم أفهم أي شيء. أنا أشعر بالهدوء في وسطهم. لا صراخ. لا عويل. لا ضجيج. ولا مجادلات متعبة ولا قذف ولا شتم. ورغم ذلك أشعر بالغربة. فأنا منهم ولست منهم. وهم لا يعرفونني. ولا يمكنهم أن يشعروني بأهمية ما أفعله لصالحهم.

قاطعته قائلة:

– هناك، في ذلك الموضع، أحس بألم مزعج. أدلكه بلطف، تماما،

أنت بارع، أين تعلمت المسد؟

– حينما أحفر قبرا، أريده أن يكون جميلا ومُستويَ الجنبات. لذلك حينما لا تسعفني أدواتي أستعمل يدي. فاكتسبت خبرة في تتبع منحدرات ومرتفعات أي شيء.

ضحكت من جوابه. أمرته أن يكف عن الدلك. ألبسها حذاءها وساعدها على الوقوف. قال لها:

– هل تريدين رؤية قبورك سيدتي كالعادة؟

تبعها محاولا إضاءة طريقها. لم تعر اهتماما للأشواك التي تعترض طريقها. أسرع الخطوات ليقودها إلى المكان المحدد. لم تقل شيئا. ولما وصلا. عدّت القبور وتفحصتها واحدا واحدا. اقتربت منه، أمسكته من كتفه وقالت له:

– هذه القبور لي. إنها قبوري. لا يجب أن تنسى أبدا هذا الأمر. لذلك فلا أريدها أن تضيع مني. إنها مثل حديقتي أو أكثر. سأعطيك ما وعدتك به. لكن إذا ضاعت فسوف تؤدي الثمن غاليا. فأنت تعرفني جيدا، أليس كذلك؟

حدّق فيها مليا ثم أجابها بصوت خافت:

– أنا أعـرف أنك امــرأة قـوية ذات نفـوذ. ولكنـني لا أعـرف من تكونين. فحينما يأتي شخص غريب للمـقبرة من أجل قضاء حاجة ماسـة وخطيرة، تستدعـيني السلطة وتحقق معي في الأمـر. فهي تريد معرفة الأحياء الذين يدخلون المقبرة بدون سبب مبرر وبدون ترخيص، واللصوص الذين يتخذونهـا وكرا لعملياتهم، والمجرمين الذين يريدون إخفاء جرائمهم بدفن جثث ضحاياهم خلسة... ولكن لا أحد سألني عنك... فاعتقدت أنك منهم. لذلك أنا مطمئن، ولا أخاف من أية مصيبة قد تحصل بسبب هذه القبور السبعة. أنا مجرد حفار قبور. لكن وكما تعرفين يا سيـدتي. حفر القبور ليس مهنة. وليس عادة وراثية. إنه مصـيبة أو ضريبة أو غضب شـيطاني. أنا أختبئ هنا ضد نـفسي. فقـد جربتُ الأحـياء، وكدتُ أجن. أنا حـفار قـبور، أحرس موتاهم... حتى لا أجن. هل تفهمين؟ أعرف حكاياتهم جميعا تقريبا... أعرف تفاصيل حيـاتهم... آه... ياسيدتي الغريبة! قبورك السبعة لغز... ولكَم أود أن أفهم قصة قبور تُحفر لتظل فارغة...

ابتسمتْ وقاطعته بجدية صارمة:

– ومن قال لك أنها ستظل فارغة؟ قد أدفن فيـها قططا أو كلابا... أو حميرا... أو حتى أشخاصا أعتبرهم بهائم... ما بك؟ ألا تصدقني؟

- لا... ليس المشكل هو أن أصدقك أو أكذبك. فأنتِ تتكلمين بيقين مخيف. هل أنتِ قاتلة؟ هل تهيئين أمرا سريا؟... دفن الكلاب... في مقبرة المسلمين لا يجوز... ستقولين لي ليس كل من دفن في هذه المقبرة مسلما حتى وإن كان يردد الشهادتين... أنتِ تقصدين كلابا آدميين... فمن يكونون؟

حملقت ببصرها باحثة عن مكان يصلح للجلوس. ساعدها على أن تضع مؤخرتها بأمان فوق كومة من الحصى. نظرت إلى القبور المستلقية في لامبالاة قاتلة أمامها، وأجابته:

- إن كنت أنت تعرف تفاصيل حياة الموتى وتشعر بأنك سيدهم، إن كنت هربتَ من الآدميين ولجأتَ إلى مملكة عزرائيل... فأنا أحمل سري في قلبي، وسري جرح لا يندمل، كأس سم لا يقتل لكنه يميتني حية، ويتركني أموت قطرة قطرة وأنا أزداد حياة... لا أدري هل ستفهمني... أنا أحسستُ براحة غريبة حين امتلكتُ هذه القبور السبعة. فحتى إن كان أعدائي مائة، فإن سبعة قبور كافية لإيوائهم. أما إذا كانوا أقل من سبعة، فسأوزعهم كما أشاء، وحسب مزاجي. أريد لهذه القبور أن تصبح حدائق تزهر في كل الفصول، وتلهج باسمي، وتمتلئ بالحياة، حتى لا يشتبه في أمرها أحد، لا من الإنس

ولا من الجن...

- هل تريدين يا سيدتي أن أزرع فيها الورد وأسقيه وأترك الناس يستريحون فيها ويتحدثون في العشق ويدخنون فيها سجائرهم ويشكون لبعضهم البعض همومهم وآلامهم...

رفعت رأسها إلى أعلى تجاه النجوم التي تضيء بعضها البعض بعيدا عن عتمة القبور وضحكت ضحكة صاخبة. أشارت له أن يجلس قربها. قرصَتْ خدّه قرْصا خفيفا وقالت:

- أية حرفة امتهنتَ قبل أن تصبح حفارا للقبور وحارسا للموتى؟

- كنتُ غسّالا للموتى...

- وقبل ذلك...

- مُدَلِّكا في الحمامات...

- وقبل ذلك...

- ختانة أبناء المسلمين...

- وكيف تخليتَ عن الختانة لتصبح مُدَلِّكا...

– فقد الناس الثقة في مـهارتي لأنني خَتَنْتُ أحد الأطفال دون أن أنتبه لتشوه في ذكره. فحمَّلوني مسؤولية ما وقع له من أذى...

– أنتَ لا تفارق الأجساد البشرية... كيف تُفسر ذلك؟

– لا أفهم قصدك. ولكنني أحب اللحم الآدمي ميتا كان أو حيا. ولا أرى ضررا في أن يظل جسم الآدمي عُـريانا... لأن الله خلقه كذلك... علينا فقط مقاومة إبليس الذي يدفعنا إلى التـفكير في استعمال هذا الجسم بدل النظر إليه كما هو...

– أردتُ أن أتعـرف عليك أكثـر، حتى أتأكـد من قدرتك على فـهم أهمية حديقتي هذه...

– كيف لا أفهمك يا سيدتي وأنا خزان حكايات الموتى والمشردين والمخمورين واللصوص والسحرة وأسرار الدولة...

– أسرار الدولة... كيف؟

– قد يخـدعك اصطفاف القبور وانتـصابها الواحد قـرب الآخر... فهنا يوجد أكثر من قبر جماعي. فحينما كانت تقوم التمردات ويُقتل الناس، كـانوا يأتون بجثـثهم ليـلا تحت حراسـة مشـددة بعدمـا يقومـون بتمشـيط المنطقة وإفـراغها من كل مـتحـرك، ويأمرونني

بكتمان السر وإلا ألحقوني بهم... حيا... ولأنني أحرس أيضا أسرار الدولة فأنا أتمتع بقليل من الهيبة... ولا أخشى أحدا.. فأنا مثلا بإمكاني الفرار إلى بلاد أجنبية وأفضح الأسرار وأحدد الأمكنة والأعداد والتواريخ.. لكن لماذا سأقوم بذلك... مادمتُ أعيش في هدوء وراحة بال... أحصي القبور وساكنيها، وأتفقد الأسرار حتى لا تصاب بالرطوبة والنتانة... أنظري... هناك قبر الحمقاء التي كان يضاجعها أحد أثرياء المدينة، ووجدت ميتة وقد لفت في بطانية عسكرية وآثار مني كثير على نهديها ووجهها وبين فخذيها... لقد قتلها اللعين، وأهداها للصوص والمخمورين فنهشوها بأيورهم نهشا... وفي أول ليلة قضتها في المقبرة سمعتها تحكي حكايتها للموتى:

«- أنا ضوء المدينة، نفسها، روحها، وجسدها الذي لا يحملها لأفق بعيد... أنا تعبها، ومللها وموتها الذي يؤجل نهايته... خدعتني وانهالت علي بالأحزان، رمتني في درب التيه، وتركتني وحيدة مع الجياع الذين يفضلون اللحم الآدمي... بسببهم فقدتُ كل شيء، وفقدت حتى تيهي فحولوني إلى متاع يُنقل عند الطلب، ويُستعمل لقضاء جميع الحاجات... أنا ضوء المدينة الذي لا يضيء

نفســه... أنا نفس المدينة الذي يختنق، أنا طريق المدينة المهـجور. أنا عنف المدينة المـهان. أنـا شتـائم المـدينة المكمـمـة. أنا حـقـد المدينة الضاحك. آه... هو الذي فعل كل شيء... مالك المدينة هو الذي أهداني للجـيـاع. هو الذي نـزع مني اسمي ومـحـا ذاكرتي. هو الذي فـضل رقصة أيره على حـياتي... أنا أشكوه للدمار، للخراب، لـرعد يقتلع جذوره التاريخيـة ويحرقه كالباعوض في مـزبلة نائية على مرأى ومسمع من جميع المتأوهين...»

وهناك قربها يوجد قبر الغريب الذي كان يوزع الابتسامات على زوار المقـبرة...ويقـرأ آيات من القـرآن على الموتـى... ويقـبل آيادي النسـاء بفرح لا يوصف... وينشـد كلامـا أجنبيـا... كان يقـول أنه يجلب الطمأنينة للأرواح... كان يظل في المقبرة طيلة اليوم، ثم حين يحل الظلام يغادرها وفي الصباح الباكـر أجده بين القبور. حاولتُ طرده في البداية، وكدتُ أطلب مساعدة السلطة للتخلص منه. لكنه فاجأني بكلام محير:

«أنا مـيت يمشي بين أمـوات يـنامـون... فـمـا هو الضـرر الذي سأسببه لك... أنا غـريب... وغربتي قاتلة، وليس لي أي زقاق آوي إليه نهارا غير هذه الجنة... جنة الأموات...»

رثيتُ لحاله وتعودت على وجوده، بل لقد بكيتُ لموته..

- وما سبب موته؟

- سعار في القلب... هذا ما قاله لي قبل أن يموت... قال لي: «لقد أنبأني أحد العرافين أنني سأموت بسعار في القلب مثل كلب وسط الجثث».

وهناك على يمينك، القبر الثالث المزين بعلامة استفهام سوداء... هناك ينام ناكح الكلاب..

- من؟

- ناكح الكلاب الذي اختلف الفقهاء في جواز أو بطلان غسل جثته وبالخصوص الجزء الذي مارس الرذيلة مع الكلاب الملعونة في كتب الأولين... وحرم آخرون دفنه مع المسلمين لأنه لم ينكح كلبة واحدة لظروف اضطرارية وإنما كان يصرح علانية أن أدبار الكلاب أفضل من فروج الآدميين. كما اشتهر بخلاعته وعدم احترامه لأعراف المدينة. ولقد نُقلت جثته في شاحنة لجمع الأزبال، ولم يمش في جنازته أحد، ودفنته وحدي.

ها أنتِ ترين يا سيدتي أن هذه المقبرة ليست صامتة كما يبدو،

وليست مجرد حفر للجثث. إنها مكان يصرخ، وأصوات تبحث عن آذان. لكن ماذا عن حديقتك؟ ما المطلوب مني؟ فأنا نفذتُ جميع أوامرك...

ساعدها على الوقوف. وضعت يدها على كتفه. ابتعدت عنه قليلا. نزلت إلى القبر الأول على يمينه. اقترب من القبر ومد لها يده ثم جرها إلى الأعلى. نظف ملابسها. توجهت نحو وسط المقبرة ببطء. أراد أن يسألها من جديد لكنه سمع فجأة صوتها وقد تبدلت نبرته:

– لا شيء. احرسها فقط. لقد قلت لك أن تلك القبور حديقتي. إذا استطعتَ أن تزرع فيها الورد وتدخل لها الأمطار وشيئا من الرعد والبرق، وتترك بعض اللصوص يسرقون زمنها... فافعل... وحتى إن قامت المرأة المجنونة ليلا، فاتركها تفعل فيها ما تشاء... المهم يا حفار هو أن تحرسها وأن تظل قبوري أنا... مملكتي أنا...

سمع جلبة آتية من بعيد. ضجيج إغلاق أبواب سيارات. صدى أقدام تدق على الأرض بعنف. أطفأ قنديله الباهت وأمرها بالإختباء إلى أن يتبين طبيعة الأمر. رفضتْ طلبه. نهرته واتهمته بالخوف

والرعب. لم تتوقف عن المشي، وفجأة انتصب أمـامها عدة أشخاص متنكرين. هـجم إثنان منهم عليها. أغلـقا فمـها لمنعهـا من الصراخ. وأسقط آخرون الحفار أرضا. هددوه بالضرب إن أبدى أية مقاومة. اقتـرب أحدهم. جلس القرفـصاء. أمسكه من جلبـابه وجره إلى أن أصبح رأسه قرب فمه وهمس في أذنه:

– لم ترَ شيـئا. هل فهـمتَ؟ ولم يزرْ المقبرة هـذه الليلةَ أحدٌ. هل فهمتَ؟ لا داعي لكي تفهم. هل فهمتَ؟ الأمـر جد معقد. كن رجلا وإلا سنلقي بجثتك في حوض آسن لا قعر له.

2

راقبتــهم وهم يذهبون ويجيـؤون دون أن يلتفتوا إليـها. نظرت إلى قيـدها وابتسـمت بمرارة. حاولت أن تتخـيل مصـيرها في هذا المكان النائي، وهدف هؤلاء المجهـولين من القبض عليهـا. لم تتوقع أبدا، هي التي خبرت سراديب بلدهـا، أن تسقط هكذا، وبسهولة، في فخ مثل هذا.

لم تسـتطع أن تتعـرف على هوية هؤلاء، فهم غـلاظ قسـاة في حـركاتهم ومـلامحـهم، لكنهم لم يعـاملوها مـعاملة سـيئـة، ولم

يُشعروها أبدا أنهـا في أمان. لم يخنها جسدها المكتنز مثلـما خانها هذه المرة. فـهي تـعـودت أن تقـتـحم جـمـيع الأمـاكن والقلوب، والسراويل أيضا، بجسدها... لقد اعتبرت نفسها دائما ملكَة الذكور. ربحت جمـيع المعارك، واقـتحـمت كل الأسرار. مـا الذي وقع؟ ماذا يريدون منها؟ من هم هؤلاء؟ لم تلاحظ أية طقوس دينية تدل على أنهم من خدام الله الذين يُشهرون سيوفهم باسمه ضد من سوّلت له نفسـه المساس بملكوته... ولم تلاحظ عـربدة ولا خمـرا ولا نساء متـبرجات... هل هم ثوار علمـانيون؟ لكن كيف اسـتمروا على قـيد الحيـاة حتى الآن بعد الضـربات الموجهة بل والقـاتلة التي تلقوها على مـر السنين الماضـيـة من ذويهم ومن أسـيـاد ذويهم؟ وكـيف أمكنهم أن يستقلوا بأنفـسهم وبأفكارهم في هذا المكان في منأى عن أعين الحرس الذي لا ينام؟ هل هو عصر سيبة جديد؟ هل هم جماعة قبلية تستعد للهجوم على مركز البلد من حواشيه؟

اقتـرب منها أحدهم. فك قـيدها، وأمرها بإشـارات مقتضـبة بأن تتبعـه... لاحظت وهي تمشي خلفه بتؤدة ملامح فـضاء عسكري، وملفات تعـد هنا، وتُحمل إلى هناك... امـتد بصرها ليـعانق مكان اعتـقالها. رأت على بعـد مائة متـر تقريبا أسوارا عـالية وضخـمة

تحيط بالمكان، وأبراجا ترتفع قليلا عن مستوى ارتفاع الأسوار وقد زُيِّنت بصور لسيوف ورماح وحروف بعدة لغات...

بدا لها المكان منسق البنيان ومنسجم العناصر، فكل مكوناته من منازل ومكاتب وأكشاك تصب في وسطه. ودهشت لتوفر الماء والكهرباء والهاتف والحواسيب... تأكدت أن هذه الجماعة متصلة بالعصر وبمنتوجاته، وتتوصل بطرقها الخاصة، دون شك، بآخر المنتوجات والمعلومات...

ازدادت حيرتها، وأخذ قلقها يكبر، فهي ليست في أيدي أي كان.

قال لها الشخص الذي أمرها باتباعه:

- بعد ساعة من الآن، سآتي لآخذك إلى مكان آخر... استريحي جيدا... فأنت مقبلة على مقابلة ربما تكون آخر مقابلة مع بشر في حياتك...

فزعت، وهمت بالكلام... لكنه كان قد أقفل الباب وانصرف.

سبق لها أن واجهت الفشل، وانتصرت عليه بدهائها وأنوثتها... لكنها لم تواجه أبدا تهديدا جديا بالموت...

توجهت نحو مرآة متوسطة الحجم، وُضعت فوق طاولة جميلة، وأُسند جزءها الأعلى إلى الجدار... أحسست بأن طول الغرفة قد يبلغ سبعة أمتار... اندهشت لأنها بدت لها في البدء أصغر من ذلك بكثير... وجّهت لطمة خفيفة لخدها الأيمن حتى تنتبه إلى ما حولها... وقفت قبالة المرآة، وأبصرت لأول مرة في هذا المكان... كائنا تعرفه... وخاطبت صورتها قائلة:

– ها أنتِ تطلين عليّ من مرآة غريبة، وفي مكان غريب. ليس موعدنا اليوم هو أن نتجمل ونتزيّن ونضحك على ما سيحدث مع مجانين الجمال، وكلاب الجنس، ولصوص القبلات... أتذكرين كل تلك المرات التي كنا نضحك من عمق أحشائنا، ونستعد للعب أدوار شيطانية مع أصحاب المال والنفوذ... ما عساني أقول لك الآن... هل أنا في ورطة... هل أنا في حلم... هل أنا في المكان المناسب لأجني ما صنعته يداي... لا أعرف... ابتسمي لي، حتى أبتسم أنا. أظهري جمالك حتى أحس به أنا. لا تظلي هكذا خرساء مثل الحجر. هل أستحق كل هذا؟... آه... ربما على أن آخذ الأمر بجدية أكثر... بنضج أقوى. فأنا أمام عدو... لكنه عدو مجهول الهوية. لا أعرف ما يريده مني! هل تعرفين أنت شيئا ما عن هؤلاء الناس؟ لنفكر معا قليلا.

نحن اللتان رقّصنا القردة، وأضحكنا الخنازير، ما الذي يمكن أن يجده هؤلاء عندي... فأنا مجرد شيئين: أنوثة للنكاح، ومعلومات. أما الأنوثة، فهؤلاء لم يعيروها أي اهتمام، إذ لا أحد منهم ظهر عليه النزوع نحو الرغبة فيّ... لا زعيمهم ولا حراسهم... إذن، بقي أمر واحد، قد تهمهم المعلومات. لكن، من أخبرهم أنني أملك معلومات؟ ربما أصبح الأمر أكثر تعقيدا في وقتنا هذا. فكل شيء في هذا العالم الجديد أصبح عبارة عن معلومات. فالقبلة، والمداعبة، والمص، واللحس، والاختراق مجرد معلومات... تباع وتُشترى. فالذي يأتي باحثا عن قبلة عندي لا يجد القبلة الأولى والأخيرة... بل يجد معنى لقبلة... معنى لا يرويه، ولا ينهي طلبه. لذلك فهو يستمر طيلة حياته باحثا عن هذه المعلومة الخاصة التي هي القبلة... لقد فهمتُ هذا منذ زمن.. لكنني لا أفهم الآن ما يقع لي.

من هو عدوي؟ انظري إلى هذه الغرفة. فهي فسيحة ونظيفة ومرتبة وفق نظام مدروس... تجدين هنا المرآة التي تستضيف حديثنا، وخزانة مليئة بالكتب والوثائق، وعدة كراسي حول طاولة للحديث أو العمل، وأريكتين كبيرتين لطلب الراحة... ألا تشمين رائحة عسكرية؟ أو على الأقل جدّية مفرطة في الحياة لا

تشبه أبدا جدّية عالم التجسس الذي اشتغلت فيه وإياك بقرف وسخرية وعنف... فالجواسيس كما تعلمين لا يحبون بلدهم... هم آلات تنفذ الأوامر... وتجني من وراء ذلك إشباع الرغبة المجنونة في الانتقام وفي امتلاك النفوذ... أي نفوذ؟ لا تسخري مني!... النفوذ الذي يمكنهم من إذلال الناس واحتقارهم بل وقتلهم... يريدون وبكل حقارة مشاركة الله في منح الحياة وأخذها، في التحكم في الرحمة والعذاب... ربما لم أتمكن أبدا من معرفة السبب الحقيقي الذي دفعني إلى الاشتغال مع هذا الصنف من الأدوات... هل هو الحقد الذي يسكنني دون أن أعرف مصدره ولا دواعيه؟ هل هي الرغبة في التفوق المطلق؟ التفوق بالأنوثة والحيلة والإغراء والغواية والنفوذ والسلطة... أنا الآن قلقة، بل مرعوبة من المجهول. فبعد قليل سيأتي الرجل الصامت لأخذي لا أعرف إلى أين... هل تخافين من الموت؟ ألم تشعري أبدا حين كنت تَصلينَ قمة النَّشوة بعبث كل شيء؟ ولما تجدين نفسك في قعر الحياة، في ظلمة الصمت... وعتمة الرغبة... وسواد النفس هل تشعرين بحب الحياة؟... ما الحياة؟... يا صورتي... ما الحياة؟

تراجعتْ قليلا إلى الوراء... اتجهتْ صوب الأريكة الكبيرة

وتركت جسدها يسقط وكأنه قطعة لحم بدون مُحرِّك.

سمعت خطوات تقترب من الغرفة. لم تحرك ساكنا. انتظرت أن تأتيها حركاتها من تلقاء نـفسها. فُتح الباب. رأت الرجل الصامت. أشار إليـها بنفس الإشـارات المقتضـبة بأن تتبـعه. وقـفت بهدوء. اقتربت من المرآة، ابتسمت لصورتها، نظرت إلى لباسها عبر المرآة، حدقت في مـؤخرتها البارزة والتي أعطاها سـروال الدجين الضيق شكلا متـماسكا. ابتـسمت. لم تتغـير ملامح الـرجل الصامت، ولم يغضب أو ينهرها. وهي أيضا لم تفاجـأ بذلك. قالت وهي متوجهة نحو الباب:

– ربما أكون أنـا الآدمية الوحـيدة هنا... لكن لا أعـرف هل أنا من النوع الأرقى أو من مخلفات القردة!.

أغلق الرجل الصامت الباب ومشى أمامها وهي تتبعه بصمت.

مشت وراءه في ممر طويل. توقف عند نقطة مراقبة، فتوقفت هي أيضا. تفحـصها المراقب بدون علامات انفعـال أو عداوة أو تضامن. استـغربت لهـذه السلوكات الحـيادية المعـممـة لدى هؤلاء الناس. وأدركت أن أملها في أن تفهم طبيعتهم وهويتهم ربما أصبح وهما.

قالت وكأن صوتها تمرد عليها:

– أنا لم أعد مِلْكَ نفسي... أنا مِلْككم... تمَّ فحصي في السابق... من أين لي أن أعبث بمصيري وأنا أسيرتكم؟

لم تصدق سماعها لرد المراقب الذي أتاها هادئا:

– من الواجب التأكد المستمر من سلامة أي كان هنا، لا أحد يملك أحدا. هناك واجب تجب تأديته. كل إنسان أمانة عند نفسه، وإذا لم يتمكن من حفظ نفسه أو تطاول إلى العبث بها، فتجب حمايته من نفسه بأكثر الوسائل إنسانية.

اطمأنت لما سمعت كلام المراقب الأول، وأحست أنه من العبث الاستهانة بذكاء هؤلاء. وانتابها شعور حاد بالاغتراب. فهي تتذكر ذلك اليوم الذي قررت فيه أن تستعمل ذكاءها كله كعقل لأنوثتها وإغرائها لضحاياها. وتتذكر أيضا القبر الرمزي الذي وارت فيه ذكاءها الأصلي الذي كانت تنعته بـ "الإنساني جدا" أو أحيانا بـ "الإنساني المفرط في إنسانيته".

أوقفها الرجل الصامت أمام نقطة مراقبة أخرى. ثم أمرها بعد بضعة أمتار بأن تجلس فوق كرسي قرب طاولة وُضِع فوقها قلم

جميل وحُزمة من الأوراق الصفراء الجيدة، ثم انصرف.

وبعد مدة وجيزة قدم رجل آخر ببذلة سوداء أنيقة. ظل واقفا قُبالتها إلى أن ركزت انتباهها عليه فقال لها:

– من حقك علينا أن تعرفي أين أنتِ، على الأقل بالقدر الذي يمكنك من الدفاع عن نفسك...

– ولماذا أدافع عن نفسي؟ ما هو الجرم الذي ارتكبته في حقكم؟

– ليس هذا هو الموضوع. فقد قُرر في حقك ما قُرِّر بعد تجميع الدلائل الأكيدة. عليك أن تعرفي فقط أنك في مكان يسمى "مخيم الواجب"، وأن الأشخاص الذين يوجدون هنا لم يأتوا من السماء، وليسوا مجرد حالمين. نحن نعتقد أننا الورثة المتنورين للإنسانية. نحمي قيمها، وندافع عن مستقبلها. كان من الممكن أن تكوني منتمية أنت أيضا لهذه الجماعة. لكنك اخترتِ طريقا آخر...

– وما شأنكم أنتم باختياري؟ ولماذا تنصبون أنفسكم ورثة للإنسانية؟ وتقولون أنكم متنورون! وهل تحتاج الإنسانية إلى المتنورين أم إلى الذين يسيرونِ في الظلام؟ من أدراكم أن الإنسانية لا تتقدم إلا انطلاقا من القرارات التي تُتخذ في البيوت المقفلة

والمحروسة ليل نهار؟...

– لم يُفوضوني لمناقشتك، ولا للرد على آرائك. واجبي ينحصر فقط في إخبارك بما أخبرتك به، وبأن أضيف أنه يمكنك، أن تكتبي ما تشائين الآن في الأوراق التي أمامك... ربما سيكون ذلك مفيدا يوما ما... لك نصف ساعة. وبعد انتهاء هذه المدة، ستُحالين على محاكمة علنية.

انصرف الرجل ذو البذلة الأنيقة السوداء مباشرة بعد إنهاء جملته الأخيرة، وتركها غارقة في حيرتها. تفحصت القلم والأوراق ثم قررت أن تكتب أي شيء أملاه عليها وضعها.

بحثت عن جلسة مريحة ثم كتبت:

«لم تتعبني مغامراتي ولا انتقامي، ولا غُلُوّ رغبتي في مضاجعة من أريد مثلما يتعبني هدوء هؤلاء...

ربما يلزمني الآن أن أسترجع ذاكرة الدفن، والمواربة، وقرف السلطة، عنف الفقر وبريق الغنى، وبؤس الذين تَوّجوا أنفسهم أسيادا على بشر كالغنم...

ربما يلزمني الآن أن أمجد الغرور، وأعظِّم الحقد وألا أتصالح مع

الندم... فلست أنا التي صنعت هذا الحطام من الناس، ولست أنا التي ولدت العاهات في العقول، وحرَّفْتُ الطاقات عن مسارها، وجعلت الأذكياء مجرد خِرق يمسح بها ذوو المال مؤخراتهم...

أنا لم ألِد أحدا، ولم أطلب من أي كان أن يلدني. وجدتُ نفسي هنا وحيدة، جميلة وفاتنة. وهم نصبوا لأنفسهم فخاخا، لما أرادوا جري إلى مستنقعاتهم.

الهذيان ليس قصيدتي. والبكاء ليس جنتي. والخوف قدر لا مفر منه. لكن الشجاعة فضيلة حتى حينما نكون من أسوأ الكائنات على وجه الأرض. الشجاعة هي ما يجعلنا لا نسقط كلية في سلة الحيوانات، هي ما يحمينا من الدناءة، ومن حقارة لا قعر لها.

أنا عشت بدون إسم، نوديتُ بالجميلة، ثم بالراقصة... لم يكن أحد يضطر ليسأل عن اسمي، لأنه كان يجد نفسه أمام جسدي الراقص عاجزا عن ولوج عالم الأسماء التي لم تكن لتعني أي شيء. الرقص يعمي الأبصار ويجعل القلوب على شفا حفرة الموت، ثم يحييها بعنف وعنفوان. لا أحد أمكنه تحدي فتنتي.

ها أنتم تعرفون الآن اسمي. أنا " الراقصة " التي أرقصت الرفيق

والشيخ والضابط والآخرين... وليست لي أية رغبة الآن في أن أرقصكم...».

وضعتْ القلم في مكانه. وتأملتْ ما كتبته. ظلتْ هادئة في مكانها إلى أن عاد الرجل ذو البذلة السوداء الأنيقة. وبعدما تفحصها، وألقى نظرة على الورقة قال لها:

– تفضلي أيتها "الراقصة". لقد احتفظنا لك بنفس الإسم في ملفك عندنا. فمن خصائص الاسم أن يعبر بقوة عن أبرز خاصية في حامله أو حاملته. ولكن لا أعرف هل هذا ينطبق على حالتك أم لا!

قالت وهي تسير وراءه:

– لقد كانوا يتبعونني وها أنا أتبعكم الواحد تلو الآخر. وأرى أن مسافاتكم قصيرة. ونُقط المراقبة عندكم كثيرة. وأتساءل: هل مخيمكم ينتمي للدنيا أم للآخرة؟...

– نحن نوجد في نقطة توازن. لذلك يرتكز مذهبنا كله على الحس السليم، وليس على الخطابة. وسوف تعيشين ذلك بجوارحك، لأن الأمر بالنسبة لك هو مسألة مصيرية. أنظري إلى هذه الساحة. إنها ساحة المحاكمة. هناك في الوسط طاولة

مخصصة للمتهمة، وقريبا منها على اليسار واليمين توجد طاولات الزعيم ومستشاريه. وأمـا الطاولات المصطفة على جنبات الساحة فهـي مخـصصـة للجنود. وكمـا تلاحظين فقـد خُصـصت طاولات صُبغت باللون الأبيض لمن تريد من النساء عـدم الإختلاط بالرجال لأسباب تخصهن. فقوانين المخيم لا تمنع لا الإختلاط ولا الفصل بين الجنسين، ذلك لأن التطور غير متكافئ بين الأفراد.

أطلب منك الآن أن تتـوجهي إلى المكان المخـصص لك وتنتظري حتى يحضر الآخرون... ولن يطول انتظارك.

تذكـرتْ ساحـة قريتـها الفـسيـحة، والألعـاب الطفوليـة التي مارستها بشغف وحيوية ولامبالاة دون أن تعلم مصدر كل ذلك. ثم قـفزتْ سـاحة المدرسـة إلى الواجهـة، المنافسـة والشغب، الحـرية المشروطة وحرارة البراءة. اختلطت مختلف الساحات في ذهنها... ساحة الجامعة الغاصة بمآت الطلبة وهم يتظاهرون أو يتناقشون فيـما بينهم وقـد شكلوا حلقات بشـرية كثـيفة... شـاهدت نفسـها عروسا تلاحقـها النظرات، والغيرة تشتعل في عيني رفـيقها الذي كان زعيما بارزا. كانت تشعر أنها هي التي كانت تخطب من فمه... لكن هذه السـاحـة ليـسـت للفـرح أو حـتى للمـصـارعـة... إنهـا

لمحاكـمتـها. انـتابتـها رغـبة عنيـفة في الجـري الجنوني في هذه الساحة إلى أن تفارقها الحياة، أو تحدث معجزة فتطير في السماء لتعـود إلى طفولتهـا، إلى ما قبـل " الراقصة " و " الجـميلة "... إلى البراءة. لطمت خدها بسرعة فائقة وقالت:

- ليس هذا وقت الحلم... فـهـذه قـد تكون ساحـة مـخـصصـة لمصارعة الثيران... وأنا التي رُشـحتُ لأكون الثور. لذلك فلا يهم أن يكون موتي على يد المصـارع الأول أو الأخير... مـادام الموت هو قدر الثـور الذي يُقـاد من ظلامـه إلى نور يُعـمي بصـره. أنا ثور بدون ذكر... أنا الثـور الذي كان " الراقصة " ! يا للغـرابة... كانوا جميـعا يقبِّلون قدمي كالأقزام... هل انتقـام الذكورة أمر حتمي؟ أم أن موتي كُتب في لوح أُلقي به في هذا المخيم؟ هل من واجب " مخيم الواجب " أن يُذلني إلى هذه الـدرجة... أن يُـأْتَى بي إلى هنا لأحـاكم دون أن تُوجـه لي تهمـة محـددة؟ هل سيـحاكـمون من خـلالي أمهـاتهم وخليـلاتهم وزوجاتهم وبنـاتـهم؟ ألا يحاكـمون الفـتنة والأنوثة والغواية والإغـراء؟ وماذا لو حَكَمَ عليَّ ورثةُ الانسـانية المتنورين هؤلاء بالرجم... هل الرجم حكم متنور؟

انتبهتْ إلى دخـولهم فرادى وجماعات صغيـرة. تساءلت عمن

يكون الزعيم! امتلأت الساحة. اخـتارت الكثير من النساء الكراسي البيـضاء، وأخـذت أخريات مكانهن وسط الذكور. امـتلأت المقـاعد المخصصة لمستشاري الزعيم. ظل مكانه شاغرا. ساد صمت مطبق. ثم وقف الجـميع. التـفتت إلـى يسارها فـأبصرت رجـلا متـوسط القامة، وسيم الوجه،بلباس عادي يحـمل ملفا ضخما بنفسه، حليق الرأس. تقدم إلى مكانه وجلس ثم جلس بعده الجميع.

فتح الزعيم ملفه الضخم. قلّب بعض الأوراق. سـجل شيئا ما ثم حدق في "الراقصة". وقف، خطى خطوات تجاهها وقال:

– أنتِ لست شهـرزاد. وأنا لست شهريار. لذلـك سوف تتكلمين، ثم تموتين. أنا متأكد أن بداخلك منبع سيمنعك من الكذب، لأن الكلام إذا استرسل قـصد الحق بالضرورة، وحتى إن كـانت لي قدرة على التنبؤ بما سـيقع لك، ولأفئدتنا من جراء ذلك، فـإنني لا أستطيع أن أتوقع قـوة وعنف وسحـر كلامك. فـأنت لستِ راقصـة عادية مـثل جمـيع الراقصات، أنتِ "الراقـصة" التي داست بجمـالها وفتنتـها أرواح الناس. أنت مَـزجتِ المتعـة بالموت، والضـحك بالدم، والحب بالسحر. ولن يكون موتك إلا رقصتك الأخيرة.

3

حدّقت الراقصة في الزعيم وقالت:

- أنا لستُ شهرزاد، وأنت لست شهريار أيها الزعيم. ولكنني أنثى، أجسد الفتنة والغواية والإغراء... جسد يقطر وبالا وخرابا لأنه شجرة لذة واستمتاع، منبع إشباع وراحة... والأنثى هي البداية، وهي الملجأ، فأنت مهما فعلت ستظل أسير الأنثى، حتى وإن

خضت الحروب الطويلة، ودافعت عن المثُل المطلقة، فلن تتحرر أبدا من سحرها، وجاذبيتها ورقتها... فما ذنبي أنا إذا كان الكون قد صنع ما صنع... وانتهى الأمر!

ومن سيجبرني على الكلام إذا لم أرد أن أتكلم، وبالخصوص إذا كانت النتيجة واحدة في جميع الحالات: موتي.

عاد الزعيم إلى مكانه. جلس وقال بهدوء:

– أنا متأكد أنه كلما رفضتِ الكلام كلما احتدّت الرغبة في الكلام عندك... فنحن لم نأت بكِ إلى هنا صدفة، ولا ظلما. نحن نعرف عنكِ الكثير... لكننا لا نعرف سحرك وفتنتك... لقد تعاملتِ ولمدة طويلة وبمحض اختيارك مع أعدائنا، وتجسستِ لصالحم، ونقلتِ المعلومات وحولتِ اتجاهات الناس، ودمرتِ حياة أشخاص ولدوا وتربوا لخدمة مُثل عليا، وادعيتِ انتماءك لـمُثلنا، وضغطتِ بكل ما تملكين من حسن وفتنة ودهاء وتحرر لخدمة أقرف الموجودات... كيف إذن لا تريدين للنتيجة أن تكون هي نفسها في جميع الحالات: أي موتكِ.

– إن مُثلكم ضعيفة، والأفراد الذين يدافعون عنها أضعف...

ولتعلم أيها الزعيم أنني لا أهاب الموت، لذلك أسألك ما دمتم تعرفون كل شيء عني، فلماذا تصرون على سماع اعترافي؟

– اليقين وحده لا يكفي، والأفكار الواضحة لا تفسر كل شيء... ولكي تفهمين أكثر قصدي، سأحكي لكِ جزءا بسيطا من ألمي...

«قبل أن أنتمي إلى "مخيم الواجب"، جبت البلاد طولا وعرضا رفقة رفيق جمعتنا نفس الأفكار. كنا نسميه "كارلوس"، لأنه كان عميقا في آرائه ومحققا انسجاما نموذجيا بين فكره وممارساته. كان يمقتُ أشد المقت الغنى والاستعمار والصهيونية والتخلف، وكل أشكال الاضطهاد والتمييز. ولم يكن مقتنعا بوجود فارق جوهري بين الصهيونية واليهودية. كان يردد أن اليهود هم خزان الصهيونية، وأنه من المستحيل الدفاع عن كون اليهود لا يساندون الصهيونية كيهود، أو أن الصهيونية لا تستفيد من انتمائهم الديني الطائفي ذلك... كان منظرا ممتازا. عاشر الفلسطينيين وجادلهم فيما يخص قضيتهم التي كنا نعتبرها "قضية وطنية". واقترب أشد ما يكون الاقتراب من أطر الجبهة الشعبية ومتطوعي أبي نضال.. ولم نكن نعرف كيف كان يحصل على المعلومات والوسائل لربط كل الاتصالات دون تعريض أصحابها للاعتقال...

لم يكن بمستطاع أحد مجادلته نظريا في أي موضوع يخص التحرر وما يترتبط به... لكن آفته العظمى وعقدته المحيرة كانت هي المرأة. فبمجرد ما يُفتح موضوع المرأة، يلتجئ إلى الاحتماء في الصمت، ثم ينسحب من الجلسة عند أول فرصة سانحة.

كان "كارلوس" أسمر اللون، قوي البنية، يرتدي دوما ملابس رياضية متقشفة، لا تكف عيناه عن اللمعان. يبدو دائما وكأنه ظل مستيقظا ألف عام. لا يفاتح أبدا بالحديث أيا كان. يختار، كقناص ماهر، زمن انخراطه في الكلام. كان يقول لي دون ملل:

– الكلام صلاة. طقوس وقرابين. لسنا ما نحن عليه إلا بالكلام. أخاف أن أقول أن ما يميز الناس في العمق –إذا تجردنا من ملابسات الواقع اليومي– هو طرقهم في الكلام، لأن الكلام هو واجهة الاعتقاد، هو المناسبة المتميزة، رغم تكراراتها، التي يرتفع فيها الانسان إلى إنسانيته، ويضع ما بين قوسين، حيوانيته المتأصلة فيه.

– لكن الكلام هو قدرة يمتلكها الناس وفق قانون اللاتكافؤ الناتج عن الشرخ العميق الذي يفصل بعضهم عن بعض في

حياتهم المعيشية...

- هذا واضح. وأنا قلت تحديدا إذا تجردنا من ملابسات الواقع اليومي.. والظاهر أن التجرد مسألة شكلية.

وذات يوم دعاني "كارلوس" لتناول العشاء معه. كان متوترا. وجدته قد أعد كل شيء. أضاء الغرفة بضوء خافت يزيد من هدوء المكان، وموسيقى "موزار" تصل إلى آذاننا بالكاد... حدّق فيَّ دون أن يقول شيئا. لم أتمكن من تبين سبب انزعاجه وتوتره. وبالرغم من حالته السلبية تلك، فقد ظل وديعا. كانت له قدرة خارقة على السيطرة على انفعالاته. فالغضب بالنسبة له مسألة جسدية، لذلك، فالعقل بإمكانه التحكم في الآلة الحيوانية. لم تكن أفكاره تنفصل عن النظريات الكبرى المتداولة... وفجأة قال لي:

- لقد تعبتُ.

- وما الذي أتعبك؟

- نفسي...

- لكنك كنتَ دائما المنتصر عليها، وكنت أيضا أقوانا حنكة في عدم مجاراتها، بل وترويضها!

– لكنني الآن تعبتُ. أحس بالغليان في جسدي، كأنني لم أتغلب أبدا على أي شيء، وإنما نجحتُ فقط في خنقه وحبسه في زوايا مجهولة ودون أن أشعر بذلك. كل ما حبسته طيلة هذه السنين كبُر وأصبح وحشا يفترسني من الداخل. فلا أبو نضال أنساني نفسي ولا جورج حبش طهرني... ولا حتى إرادة غيفارا جعلتني أولد من جديد... أنا ظللت ابن هذه الأرض بانكساراتي وبآلامي، بالندوب التي تحكي عن فقري وتيهي. ربما نجحت في إخضاع النظريات، ولكنني فشلتُ في إخضاع نفسي. إنها تتمرد علي... وقد تقتلني!

– وكيف يمكنني أن أتعرف عليك في صورتك الجديدة أنا الذي كنتُ دائما أحتار من قدرتك على ألا تكون إنسانا يوميا! لا أخفيك يا كارلوس أنك بالنسبة لي كنتَ نصوصا حية، نصوصا من الحب والتضحية. وظل سؤالي مكبوتا في عمق أنفاسي: هل يمكن لأي إنسان أن يعيش بالمبادئ فقط؟

ساد صمت رهيب. أعدَّ الشاي بطريقته الخاصة. ناولني كأسا ساخنا وتمدد قبالتي. حوّل بصره عني وقال:

– المرأة هي السفينة التي لم أنجح أبدا في ركوبها...

– وهل تركتها تركبك؟

ساد الصمت مرة أخرى، ذلك الصمت الذي يخفي صخبا عارما في نفسينا. أحسستُ أن كلامي فجّر خُرَاجاً فيهِ. تمدد على ظهره وألصق بصره بالسقف وقال:

– أيقظتَ بكلامك هذا بركانا لم أستطع أبدا اقتلاعه من جذوره. هل تعرفني حقا أنتَ يا أقربَ الناس إليَّ؟ ماذا تعرف عني؟ فأنا بالنسبة لك مخلص مثالي لمبادئه، مغامر بحياته، لغز في وسطه... لكن قبل أن أكون الشخص الذي تعرفه، ما الذي كنتُه؟ وهل توقفتُ عن أن أكون ما كنتُه؟ أم أنني استمرّيتُ في أن أكون ما كنتُه إلى جانب ما أنا كائنُه بالنسبة لك؟ أين اسمي الحقيقي؟ لماذا ارتحتُ في هذا القناع الذي هو شهرتي؟... "كارلوس"... أنا قناعي، لكن قناعي ليس أنا...

– من تكون "روزا" بالنسبة لك؟

– المرأة التي اغتصبتني وأنا في قمة رجولتي... المرأة التي أحسست أمامها بالضعف، بل بالذل، أحسست بأنني مجرد طفل...

روزا... أنتَ لا تعرفها. امرأة فولاذية، تحلق رأسها وتضع دوما عُصابة على جبهتها. لم تضع أبدا أي قُرط في أذنها، ومن النادر أن ترى لون شفتيها الأصلي. لا تكف عن التدخين، تمتص السجائر بجنون وكأنها تقوم بممارسة جنسية شاذة على مرأى ومسمع من الجميع. كان يُخيل إلي أنها مُصابة بنزعة إظْهاريَّة. رغبتُ فيها بصمت. ولم أجرأ أبدا على الاعتراف بذلك. وبينما كنت ذات مرة أحدثها عن التحرر والأمية، باذلا جهدا مضاعفا ليكون حديثي صحيحا وجذابا في نفس الوقت، أمسكتْ رأسي بيديها القويتين وقبلتني في فمي قبلة عنيفة وطويلة أفقدتني صوابي. وبالرغم من أن تلك القبلة كانت الاعلان الرسمي عن ميلاد علاقتنا الذاتية المغلقة، فإنني شعرتُ بها، ولازلت أشعر بذلك إلى الآن، وكأنها عملية اغتصاب. فلم يسبق لي قبل ذلك اليوم أن قبلتُ امرأة أو قبّلتني. ولم يخطر أبدا على بالي أن امرأةً، حتى وإن كانت "روزا" ستجرؤ على المبادرة إلى تقبيلي...

كان جسد روزا يثيرني، يستفزني ويجعلني نارا متقدة على الدوام لا تنطفئ مؤقتا إلا بالالتحام بعمقها، والإحساس بعريها وقد التهمتُه في فوضى تامة كانت تقول لي: «أنت يا "كارلوس" رجل

غير سوي في علاقتك بالمرأة». وكنـتُ أخجل من أن أعترف لها بأنها أول امرأة جرتني إلى جنتها. كنتُ مغرما بها، خائفا منها. تجذبني وأتقزز، ولكن لا أستطيع مفارقتها. أغار عليها، وأريد أن أراها ذليلة تحت ثقل رجل آخر. لم أكن أتحـكم في كل الصور والتخـيلات التي كانت تهـجم على مخيلـتي. كانت مؤخـرتها بارزة ومنسجـمة في بروزها مع مكونات جسـدها. نهدان يلفتـان النظر لتربعهـما على صدرها بعنف وعظمة. لم تكن ترتدي الملابس الرحبة. كانت تعي أهمية الغواية. أحيانا كانت تبدو لي امرأة مشاكسة، وأحيانا أخرى تبدو لي عاهرة بالرغبة وليس بالفـعل. وكنتُ أجهد نفسي لأتخيل ما يدور في رأسها تجاه الرجال. لم أكن أعرف هل كنتُ أشبع رغبتها أم لا. ولم أكن أحب أن أعـرف أنني لا أشبع رغبـتهـا. كانت العـيون تلتهمها التهاما دون أن تعـير أي اهتمام لوجودي بجانبها . وكنتُ أتساءل: كـيف تستقـبل الإغراء الذكوري حـين تكون بمفردها؟ هل تبتسم؟ هل تقبل الدعوات؟ هل تحس بلذة المغازلة؟ هل يبتل فرجها بمجـرد إحسـاسـها برغـبة الآخـرين فـيهـا؟... كـان ذلك يقلقني ويؤلمني. لم تُسعـفني الكتب في تجاوز حالتي. انقلبت المتـعة إلى عذاب. وبقدر مـا تزداد رغبتي فيها، بقـدر ما يتفاقم قلقي بسبـبها.

كنتُ أفضل ممارسة الجنس معها بطريقة واحـدة بسيطة وهي أن أركبها، فـذلك كان يشعرني بالسيطرة عليها، وإذلالهـا نوعا ما. أما هي، فكانت تضحك مما كانت تسميه سذاجتي وكانت تنجح دوما في أن تفرض علي جميع الأوضاع. ولا أخفيك أنني كنتُ أجد إبان الممارسة متعة حـادة. ولكن بعد الانتهـاء أحس بندم شديد، وبغم أسود، وبشعور بأنهـا ليست "روزا" المبادئ، ولا "روزا" الاستقامة، ولا "روزا" العفة... والمصيبة الكبرى هي أنني لا أملك أي دليل ضدها. ولم أعثر أبدا على أي شيء يجعلني أشتبه في أمرها!.

وفي تلك الليلة المشهودة همست في أذني:

- إذا كنتَ تحب "روزا" فقل لها الحقيقة، احكِ لها عن قصتك مع المرأة، القصة التي جعلتك لستَ أنتَ هو نفسك في هذه المسألة. أنت تعيش أوضاعـا مأساوية في علاقتك معـها. هناك شيء ما يوتّرك، يكاد يقتلك، وأنت تحمله في جوفك، ولا تريد البوح به، وكأنه شيء بإمكانه أن يدمّرك إذا بحتَ به لأحد ما. أنا الآن أضـعك أمام خيارين: إما أن تقول لي ما تُخفيه عني، وإما أن أذهب في حال سبيلي. فأنا لا أريد أن أتواطأ مع الزمن ضدك. أنا متحررة، ولكنني لست فـاجرة.

أما أنت فالمرأة بالنسبة لك، فيما يبدو لي، تظل دائما متهمة بالفجور الذي سترتكبه في المستقبل. أنت أسوأ من شخص محافظ، أسوأ من متطرف ديني، أسوأ من تقليدي عنيد في تقليديته...

تصور أن يُقذَفَ في أذنك هذا الهجوم بجمالية مقرفة. لم أتعرّف على "روزا" وهي تلكمني في تلك الآونة. بدت لي قاتلة حريرية، أو مدفعا شاعريا، لا أستطيع أن أصفها، شعرتُ بمغص شديد. آلمني بطني. أحسستُ بقوة دفع هائلة تتجه بشيء ما تجاه فمي. تقيأتُ نفسي. تقيأتُ صمتي. تقيأتُ عجزي. نظرتْ إليّ بهدوء، وضعت بعض أشيائها في حقيبة صغيرة. تناولت سجارة من علبتي، دخّنتْ في صمتٍ ثم انصرفتْ. ولم أرها مرة أخرى منذ ذلك الحين أبدا.

– وما الذي كانت تريد أن تعرفه "روزا" منك يا "كارلوس"؟ هل كنتَ تخفي حقا عنها شيئا؟ كيف تفسر تطورك المذهل في أمور، وتعثرك الواضح في علاقتك بالمرأة؟ أنا صديقك... تقاسمنا القساوة والعناد... والدفاع اللامشروط عن إخلاصنا لما نحبه... هل يمكنك أن تفسر عجزك عن رؤية "روزا" كامرأة قوية وعدم قدرتك على الاعتراف بذلك؟ هل احترمتها؟ هل تستطيع أن تحترم الأنثى يا

"كارلوس"؟

سحب سجارة من علبة سجائري، نفث دخانا كثيفا في فراغ الغرفة، استوى في جلسته، بدت لي سمرته داكنة، احتلت عيناه موقعا أكبر من حجمهما في وجهه... ثم اغرورقت عيناه بالدموع. لكنه ابتسم، وجاءني صوته خافتا وهادئا:

– الأنثى هي جرحي الأول... هي دُمَّلي العفن. بسببها قتلتُ أبي مبكرا، قتلته احتقارا وحيرة. أزحتُه من عرشه، ومحوتُ اسمه من بركة القرية ومن طرقات سرية كنتُ أحرس على مباركتها كل يوم... بسببها لم أعرف الانتصاب الحقيقي إلا مع "روزا"، في وقت متأخر جدا. جهدت قدر استطاعتي لأفهم ما وقع... ولأقيس عمق الجرح، وبداية موتي المرتقب...

– لا أفهم ما تقصده بكلامك هذا...

– كان أبي تاجرا متجولا، يكثر غيابه عن المنزل بسبب تجارته. وكنتُ أنا الخليفة الذي عليه أن يحرس على استمرار وجوده، كنتُ ظله، صوته، كان عمري ثماني سنوات. لم تكن قريتنا كبيرة ولا غنية. منازل من حجر وطين، طرقات ضيقة وملتوية، لا أحد يمكنه

أن يُخفي أسراره عن الآخرين، تعودالناس على أن يعيشوا كعائلة واحدة موزعة على عائلات صغرى، تجمعها العداوة والحقد والتجسس والرغبة في أن يبقى الجميع كما هم. لا أحد كان يفرح بخلاص أحدهم من ذلك المصير. وكان أبي موضوع أحاديث وأقاويل كثيرة بسبب جمال أمي وتغيباته عنها... وفي إحدى المرات سقطت أمطار غزيرة كادت أن تقوض منزلنا، فأتى أبي ببناء لإصلاح المنزل. كان شابا قويا، لا يتحدث إلا نادرا، واتفقا على نفقات الاصلاح بحضور أمي. لاحظتُ أن البناء كان يتحدث إلى أبي وينتظر ألا يغضب كلامه أمي. ذهب أبي ليبيع سلعه وترك البناء يعمل بتوجيه من أمي وتحت رعايتي. لم يكلفني أبي أبدا صراحة بأن أنوب عنه. لكنني كنتُ أشعر بأن الأمر بديهي. عدتُ من المدرسة مبكرا ذلك اليوم. فسمعتُ قبل أن أدخل المنزل قهقهة أمي وضحك البناء وكلاما عذبا يسري بينهما. انتابني قلق مجهول. وحضرتني كل الأقاويل التي تُذاع عنا في القرية. لم أتمكن من النوم. لكني تظاهرتُ بذلك حتى لا أسأل عن سبب بقائي مستيقظا في تلك الساعة المتأخرة من الليل. وفجأة سمعتُ خطوات أمي وهي تتجه نحو الباب. أدخلت البناء الذي جاء متنكرا في جلبابه الذي أخفى

فيه رأسه ويديه. بدا لي كالشبح. قبلـها ثم أخذ ينزع عنها ملابسها بعنف وسرعة. ثم ضاجعها بقوة كـالحيوان واضعا يده على فمها كلما هـمت بالصراخ أو الأنين. أصبـتُ بصدمة كـبرى. لم أصـدق ما يحدث. أخذ المشهد يتكرر كل يوم. ثم لم يعودا يعبآن بوجودي. كان يلامسها أمامي وتتركُ يدها في يده مطولا بحضوري. ثم أخذ يسرق منها القبلات وهي راضية لا تلتفت حتى لتعرف آثار ذلك عليَّ. ولما عـاد أبي لاحظ اضطرابي. واغـتنمتُ فـرصـة خـروجـه من المنزل فتبعـته وأخبرته بالأمر. وكان ردُّ فعله أكـثر دمارا عليّ من الحدث نفسه. قال لي:

– هذه ليست زوجتُك، وأنا حر في أن أتركـها تفعل ما تريد. هذه آخـر مرة تتـدخل في شأن لا يعنيـك... ذهبتُ إلى البركـة وجلستُ على حـافتـها. فـقدت القـدرة على فهم أي شيء. اخـتلط في ذهني الحـابل بالنابل. وقررت منـذ ذلك الحين وفي ذلك الموضع أن لا أهتم إلا بما يخـصني حتى وإن عمَّ الخـراب ذلك البـيت. ومنذ تك الآونة وأنا أعيش صراعا مريرا مع أب قتلتُه حـيّا ومع أمٍّ أحببتها في عمق الكراهية. إنها مـعجزة يا صديقي أنني حافظتُ على سـلامة عقلي. لكن هل حقا لم أجَنّ؟

توقف "كارلوس" عن الكلام، وضع يده على قلبه وقال باكيا:

– قلبي محطم، فكيف تريد أن أكون سويا؟ كيف تريدني أن أحكيَ هذا الخراب لـ"روزا"؟ كان ذلك مستحيلا بالنسبة لي. فأنا أرى في كل أنثى أمي التي سيضاجعها البناء أمامي...

انطفأت الشموع، وخيم الليل علينا ثقيلا، وأصابنا الخرس اللعين الذي يقيد الأفئدة. ولما استيقظتُ من نومي هلعا لم أجده في الغرفة، ولم أعثر عليه فيما بعد أبدا...

هكذا أيتها الراقصة فقدتُ أعز صديق وأقوى رفيق بسبب أنثى! ولم أفهمه أبدا طيلة السنين التي جمعتني به لأنني لم أشك ولو مرة واحدة في قدراته. ولم أنتبه إلى ما كان يخفيه في سواد نفسه. لما عرف "كارلوس" نفسه، لم يعد "كارلوس". عاد إلى نفسه وغادر اسمه ورفاقه ونظرياته. لهذا السبب أريد أن أسمع منك اعترافك، حتى وإن كان من الممكن أن يكلفني ذلك حياتي، لأن الاعتراف حينما يصبح كائنا يمشي بيننا يكتسب قوة على إحياء الموت وقتل الحياة...

تململت الراقصة في مكانها. بدت عليها الحيرة والشك. حاولت

أن تتكلم. لكن صـوتها خانهـا. ظل الحاضرون صـامتين ينتظرون كـلامـها. لم تكن تـتوقع أن يكـون الزعيم طـيبـا مع تاريخـه، ولا منكسرا في ذاكرته. أدركت أن قوتــه تكمن في صدقه. أحست بأن لا قوة لهـا على الحكي أو حتى الكذب. جـمعت مـا تبقى لهـا من قوة وقالت:

– إذا كان من المفروض علي أن أبرر موتي مسبقا، وأن أبرر قتلكم لي، فإنني الآن بعد ما سمعته عاجزة تماما عن هذا. أنا لستُ حزينة بسبب ما قيل. أنا فقط تائهة. كنت أنتظر أن أستيقظ من حلمي، لكن يبدو أن انتظاري هو الحلم، وأنّ ما أنا فيه هو الحقيقة، الحقيقة التي تقبل الذوبان في العدم. أنا لستُ "روزا". ربما أكـون أسوأ منها، بل بكل تأكـيد أنا أقـسى وأعنف. وقـد تقولون أن المقـارنة غيـر واردة إطلاقا. لن أبرر وضــعي، ولا موتي، ولكن أطلب منكم إمهـالي حتى أستريح. فعلى الجريح أن يواجه موته صلب العزيمة، قادرا على أن يحدّق في كلامه الذي سيُوجهُ ضده كالرماح بسخرية، أو على الأقل بنكاية.

قصد الزعـيم مكان المستشارين. تحدث معــهم بصوت منخفض. انتظر الحاضرون ما سوف تسـفر عنه مداولاتهم. تابعت الراقصة

ذلك المشهد بلامبالاة، فهي تعرف أن لا أحد بمستطاعه إجبارها على الكلام، حتى وإن كان في ذلك خلاصها!

خاطب كبير المستشارين الراقصة:

– لقد استجبنا لطلبك، وأجلنا موعد اعترافاتك إلى يوم الغد في نفس الوقت.

بدا لها الرجل وسيما وهو في الستين من عمره تقريبا. أعجبها منظره الوقور وهيئته العسكرية البسيطة. وذكرها شعره الأبيض بحكيم خرافي لا يوجد إلا في قصص الأولين.

لم تنتبه إلى الرجل ذي البذلة السوداء الأنيقة وهو يشير إليها بأن تتبعه. أمرها بالجلوس في نفس المكان الذي قادها إليه الرجل الصامت. أدركت أنها ستعبر نفس الطريق إيابا كما عبرته ذهابا.

ولما أوصلها الرجل الصامت إلى المكان الأول الذي وُضعت فيه مقيدة اليدين، لاحظت أنهم أعدوا لها سريرا ومكتبا وطاولة للأكل.

أرادت أن تستفسر عن مكان المرحاض لكن الرجل الصامت كان قد أغلق الباب وانصرف.

4

تفقّدت الراقصة المكان وكأنها تلجه لأول مرة. عثرت بسهولة على المرحاض. نزعت ثيابها ومشت في الغرفة عارية. أحست بخفة وبدفء داخليين غير معتادين. دخلت المرحاض دون أن تُغلق الباب. تلمست نهديها وهي تتخلّص من آخر شيء تبقّى في معدتها ومثانتها قبل أن تلج المخيم. شعرت وأنها تفقد آخر رابط مادي بينها وبين العالم الخارجي الذي انتُزعت منه. لم تفهم لماذا تملّكتها

هذه الرغبـة في أن تراقب إحسـاساتها وهي تقـوم بعمليـة إخراج عادية قامت بهـا طيلة حياتها الماضية دون انتـباه! لامست بظرها بلطف دون أن تنزاح يدُها اليُمنى عن نـهديها. وبعد مدة اغـتسلت، وتمددت فوق السرير.

ألقتْ نظرة على الطاولـة وتفحـصت نوعـية الأكل الذي أعـدوه لها... خُبز من الشعير، قطعة لحم دجاج، برتقالة، وحساء في إناء زجاجي. وبعيدا شيئا مـا عن السرير وضعت معدات لإعداد الشاي أو القهوة..

مكنها عـرُيها والغرفـة المقفلة من الاحسـاس بالأمان. في بعض اللحظات يبدو لها أنها في مكان أليف اختارته بمحض إرادتها. فهي كانت تفـضل دائما أن تظل عـارية في عزلتهـا. وأن تُلقي نظرة من حين لآخر على جـسدها في المرآة. جسـدها الذي أصبح هو هويتـها منذ أن عرفت سحره، وقدرته الخـارقة على قول ما لا تستطيع قوله، وعلى تحقيق ما لم تحلم بتحقيقه.

جلست لتأكل. أحـست بمداعبة الكرسي لعـريها. أخذت تتـمايل ليلتـصق فرجـها أكثـر فأكـثر براحـة الكرسي، فهي تعـوّدت على

مضاعفة الاستمتاع... المداعبة والأكل في نفس الآن... كأنها تنتقم من قيم العقل ومُثُله. فالانتصار للحس وجماليته ومُتعه هو في حد ذاته اختيار في الوجود...

توقفت عن الأكل. قامت من مكانها. عبرت الغرفة طولا عدة مرات. ألقت نظرة مرة أخرى على نهديها الراقصين عبر المرآة. أمسكت كل نهد بيد وقربتهما إلى بعضهما البعض. ضغطت على حلمتيها، تركت يديها تسقطان في الفراغ. قرّبت كرسيا من المرآة وجلست قبالتها. ابتسمت لابتسامتها، ضحكت ضحكة صاخبة ثم صمتت ذاهلة. وجّهت شاهدها نحو وجهها في الجهة الأخرى وقالت:

«- هل تعكس أنتَ حقيقتي؟ هل يمكن أن تكون قد خدعتني كل هذه السنين؟ هل زرعتَ الورود الوهمية في طرقاتي حتى أتيه... حتى أدخل غابتك الوحشية ولا أخرج منها أبدا؟ هل ترث حمقا أو حقدا يجعلانك ترقص في قلبي، وأنا كالبلهاء أرقص على نغمات رقصك... تبدو لي صافيا، جميلا ياوجهي... تبدو لي راقيا في اعتلائك الابتسامة الكونية التي يحلم بها الناس ليل نهار... تبدو لي جذابا مثل حلم يأخذ صاحبته لجنة عدن وهمية... هل خدعتني حينما صورتَ لي نفسي على أنها جسدي... وصورت لي جسدي

على أنه المدخل الوحيد للقوة والنفوذ... والحقيقة! أين الحقيقة؟ ها أنا ذا عارية أمامك... هل تراني كما أنا؟ هل تراني كما أراك؟ أنت وجهي، وأنا صورتك... أنت مسمعي، وأنا صوتك، أنت نهري وأنا منبعك، أنت عطري وأنا وردتك، فكيف تظل صامتا تقتلني بهذا الليل الذي تلبسني إياه... أنا عارية وأحب عريي لأنني كرهت كل الأقنعة. هل يعشق الناس لباسي أو ما يخفيه عنهم؟ هل حين يبتسم لي ذكور بلدي يبتسمون احتراما لإحترامي لنفسي في لباسي وإعجابا به... أم لأنهم يبتسمون لأنهم جردوني منه ورأوا عبره مفاتني عارية؟ فما فائدة أن أخفي جمالي؟ ما فائدة أن أحتجب عن أنظارهم وهم لا يتوقفون عن تعريتي... وكما يحلو لهم يشاهدونني... قل لي ياوجهي... هل أنت أقل فتنة من فخذي أو نهدي أو ردفي... قل ياوجهي... قل... تكلم معي ولو مرة واحدة. فأنا حكيتُ لك حكاياتي الحزينة وخرافاتي الملعونة وترهاتي... أنا لم أكف أبدا عن اللجوء إليك... لأنك الوحيد الذي لا تتغير أمامي... الوحيد الذي لا ينقضُّ عليّ ويستعملني من أجل إشباع فراغه، من أجل ملء عدمه... أتذكرُ أيها الصامت، يا حافظ سري... ذلك اليوم الذي أتيتك فيه غاضبة، ثائرة، متمردة، حانقة... وقلتُ لك أنّ كل

شيء قد تـغير... أنني ضيّعتُ كـل شيء... وأن حياتـي سوف لن تكون بعد ذلك الحب إلا أثرا للقوة ولجـبروتها...؟ أريد اليوم، وأنا عارية أمامك تماما، مثل الحقيـقة التي لا تُرى... ووحيدة مثل عزلة منسية... لا مبالية، مثل غضب قوي... أريد أن أحكي لك مرة أخرى جُرحي، لأني أنا نفسي محتاجة لسـماعه قبل أن أموت. فلامبالاتي هي تمرين مسبق على قبول موتي. فأنا لم أعد أبالي بأن يدخل عليّ أحـدُهم ويراني كـمـا أنا... ولا أن يسـمع حـكايتي الوحـيـدة التي صنعت حـمـقي... لا أبالـي بأي شيء. لقـد تجـاوزتُ كل الحـدود، وأصبح كل شيء مجرد تمرين مُعاد... فأنصتْ إلي...

لست قادرة علـى أن أحكي للغرباء جرحي. ولـست قادرة على إخفائه. كان بودي أن أحكيه لطائر أو لظل، أو لقبر... هؤلاء الناس الذين يرغبون في فضحي لن يصلوا إلى هدفهم. سأفضح نفسي أمام نفسي، وسـأفضحـهم أمام وجوههم. هـذه الحكاية تملأ جوارحي. تفـيض من أصابعي وعـيني. أحس بهـا تطل علي من ثقب جلدي. سأحكيها لك كما أسمعها أنا بداخلي... كل يوم أعيشها بعنف وكأنها تتكرر فعلا في واقع حقيقي لا أراه...

«في يوم ربيـعي، خرجتُ لأتجـول في المدينة التي انتفضتْ من نومـهـا، وأهدتْ نفـسـهـا لحظة من الـزمن، لحظة نادرة... ذلك أن رئيس بلديتها قرر أن يحتفل سكانها باختيار ملكة جمالهم... سرى الخبر بين الناس مثل نار هنا، ونسـيم هناك.. لكن الجميع تواطؤوا مع الحـدث وخرجـوا ليسـتفـيدوا من الانفـراج والسلم... والمتعـة المستوردة كسلعة مرغوب فيها...

مشيتُ في الأزقة وأنا أحس بثقل النظرات والإعجاب يدغدغ أناي. فأنا أعـرف أنني جمـيلة، وأنني ربما أستـحق أن أكون ملكة جـمال المدينة... لكنني كنتُ أرفض تلك اللعبـة، لأنني أعتبرتُ أن مـجتمع الذكور يتاجـر بحسن نية الإناث أو بجهلن أو بفـقرهن أو على الأقل بسذاجتهن. كنت أسمع من هنا وهناك:

– هاهي ملكة الجمال... أنظروا إلى وجهها مـا أبهاه! وقامتها ما أرشقها! أنظروا إلى مشيتها المتمايلة في حُسنٍ... هل ستترشحين يا آنسـة؟... كنتُ أسرعُ الخطـى، وأبتسم تجنبـا لأي سـوء تفاهم قـد يؤدي إلى إيقاظ شـراسة الذكور النائمـة خوفا لا قناعـة. وجرتني قـدماي، في تيـهي، إلى ساحـة ممتلئـة بالشبـاب. منهم من جلس منفـردا، ومنهم من غـرق في حـديث الـعشـق، ومنهم من تحلقـوا

جماعات يتداولون في أمور ما.. اخترتُ كرسيا إسمنتيا شاغرا وجلستُ لأستمتع بالنظر إلى هؤلاء الذين اختاروا الاحتفال بالكلام... وإبراز فحولتهم عبره. وبينما أنا منبهرة بجمال اللوحة البشرية تلك، جلس قربي شاب حاد النظرات، واثق من حركاته، متأكد من تميزه عن الآخرين وبادرني بالقول:

– أنتِ أيضا اخترتِ العزلة...

– كلا. أنا معهم بالرغم من أنني بعيدة عنهم.. فأنا أشاركهم ما يفعلون بالنظر إليهم...

– آه، هذا مدهش... أنت تفكرين بشكل متميز...

– ربما، لكن بالنسبة لي، أحاول أن أصف ما هو موجود...

– ربما كان وصفنا هو فقط اجترارا لما تحمله لغتنا... تلك التي تستضيفنا وفق قواعدها ووحشيتها... فأنا لا أستطيع أن أقول أن وصفي لما يفعلون هو ما يفعلون...

– ها نحن نتحدث في أشياء هامة وكأننا نتعارف منذ زمن بعيد.

– عفوا... محمود... مواطن...

أمسكتُ ضحكة صاخبة كادت تفضح استخفافي من تعريفه لنفسه. وقلتُ:

– مواطن... أول مرة يقدم شخص ما نفسه على أنه مواطن...

– أما أنتِ فلستِ بحاجة إلى أن تقدمي نفسك... فمن الأفضل لمن تفضلتِ بقبول الحديث معه أن يسميك "الجميلة"...

– هكذا إذن... وسأكون أنا وحدي جميلة، والأخريات كلهن أقل مني جمالا...

– أنتِ متمرسة على الكلام... أدعوك إلى شرب فنجان شاي... في أقرب مقهى.

– أفضل أن نبقى هنا... ماذا تفعل في الحياة...

– أنتظر الموت... عفوا... أمزح... أنا...

– ماذا...

– أخاف أن أتكلم بحرية... فأفقدك...

– وهل امتلكتني حتى تفقدني؟

– معذرة... أريد أن أستبق الأحـداث وأشعرك بأنني ربما سأقول كلاما نادرا... ليس من حيث قيمته، ولكن من حيث نوعه...

– لا بأس عليك... أنا أحب النادر ليس فـقط من الكلام، ولكن من الناس...

ابتسم ابتـسامة أضاءت وجـهه. بدا لي أكثر إنسـانية رغم أنني أدركتُ أن ابتسامته نابعة من غروره، فلم أرد أن أتركه يتمتع طويلا بإحساسه النرجسي ذلك، فسألته بجدية:

– من تكون إذن؟

– أنا معارض...

لم أسـتطع هذه المرة أن أتغلب على الضحك. انـفجرت ضـاحكة بقوة. امتلأت عيناي بالدموع. تمايلتُ يسارا ويمينا. تركتُ جسدي يلامسه بحرية. شعر بحرج فزاد موضحا:

– أنا معارض يساري...

– أهلا وسهلا...

ضحك. فهم أنني أسخر منه فاستدرك:

– أعرف أن الانسان لا يعرف بانتمائه السياسي أو المذهبي. لكن في حالتي الأمر يختلف. فأن أكون معارضا يساريا يعني أنني أحمل قيما بديلة مخالفة لقيم المجتمع، وأن سلوكاتي هي أيضا مختلفة تماما عما هو سائد، وهي مختلفة ككل منسجم لا يتجزأ، وليس كحركات مفككة...

– انتظر يا محمود... أنتَ هجمتَ عليَّ هجوما كاسحا. أنا أريد أن أتعرف عليك في بساطتك.

– اعذريني. فقدتُ بساطتي. وزاد من بلبلتي جمالك، بالرغم من أنني لا أحب أبدا وفقا لثقافتي أن أفصل بين مظهرك وعمقك...

– أنت ليس بإمكانك الحديث خارج الكتب! الحياة هي أولا بساطة وتلقائية وقوة وأيضا أخلاق. لكن يبدو لي أنك عاجز عن الحديث ببساطة

– علميني!

– آه! أنت وجدت خلاصك من الورطة. أريد أن أراك وأنت تتحدث إلى صحْبِك. فأنا استجبتُ لحديثك بتلقائية ولم يخب ظني فيك..

– هذا أمر يُفرحني. أدعوك غدا إلى حضور نقاش عمومي بساحة

الجامعة، فأنا طالب في كلية العلوم... وأنتِ؟

– اللغة الانجليزية. أنا براغماتية كما ترى. بسيطة، واضحة. لكنني عنيدة عند اللزوم...

– لن أنس هذه الخصال...

– أو المساوئ!

لم يعلق على استدراكي. تبين لي أن براغماتيتي لا تناسب تفكيره الحالم. ولكي أنقذ الموقف قلتُ له:

– إذن إلى الغد... في ساحة الكلية.

– أجل. إلى الغد، على الساعة الرابعة بعد الزوال. إلى اللقاء. أنا سعيد بمعرفتك.

– وأنا أيضا يا محمود.

افترقنا وكلي رغبة في أن أراه في المكان الذي يعتقد أنه مجاله المفضل. فأنا أعرف الكثير من خلال عائلتي عن السياسة، وعن التيارات وعن المشاكل العويصة التي تميز البلد، وعن التناقضات في التكتلات الحاكمة... ولكنني لم أرغب في أن أهتم بجدية بهذا الموضوع... فالسياسيون الذين كانوا يزوروننا كانوا مصابين بالفقر

النفسي وبالرؤية الضيقة... كانوا عبارة عن أشباح حية، تزداد حياة حينما تخوض في هذا المستنقع، وتنطفئ كلما أثار أحدهم مواضيع الحياة الأخرى، مثل اللباس والجمال والجنس والتدخين والحب... بدت لي السياسة دائما كنفي للحياة رغم أن أصحابها يوهمون بالعكس!

وفي الغد قصدت ساحة الجامعة، في الوقت المحدد، لاحظتُ تجمعا كبيرا على شكل حلقة، وصخب كبير يصدر عنهم ثم سمعتُ أحدهم يطالبهم بالصمت وببداية النقاش وبتنظيمه وباحترام قواعده، ولم يصمت الجميع إلا بصعوبة... منهم من كان جالسا، ولكن الأغلبية ظلوا واقفين... بحثتُ عن محمود في وسط الجمع الغفير من الشباب، فلمحتُه محاطا بجماعة صغيرة يُنصتُ إلى المتدخل وسط الحلقة، وفي نفس الوقت يستمع إلى الذين التصقوا به كأنهم مستشارين أو حراس أو تابعين له. بدا لي وجهه أكثر صرامة وقساوة، ولو لم يجمعني به ذلك الحديث الشيق لاعتبرته عسكريا منفذا لخطة ما. كان المتدخل يتحدث عن أزمة النظام وعن إفلاسه، وعن الخونة وأشباه الاشتراكيين والشيوعيين الملكيين. وأخذ يكيل الشتائم لأمريكا ولإسرائيل ولجميع الأنظمة العربية.

ثم ترك الكلمة لمتدخل آخر بدأ كلامه بالإعلان عن نيته في تفنيد كل ما قاله المتدخل السابق بخصوص الاشتراكيين، ووصفه بالتطرف والصبيانية وانعدام التجربة. ثم أُعطيت الكلمة لمحمود.

كانت الكثير من الفتيات تحضرن النقاش. عيونهن متّقدة. شمّرت أغلبهن عن سواعدهن وبدينَ متحمسات لما يُقال في الحلقة.

تقدم محمود إلى وسط التجمع، تجول ببصره عبر الوجوه وكأنه يتعرف عليها أو يتفحصها لجلب انتباهها أكثر، أو لإيهامها بأهمية ما سيقوله.

- ماهو التطرف أيها الرفاق؟ هل هو حمل السلاح؟ أم هو الشتم الذي يطال جذور الشر؟ أم هو الاتيان بأفكار وحلول مخالفة تماما لما هو متعارف عليه؟ أم هو وصف المرض الذي يعاني منه جسد المجتمع؟ أم هو الرفضوية والعصبوية؟

التطرف هو أن تذهب إلى جذور المشكل وتسمي الدواء المناسب لعلاجه. هذا ما يسمونه هم، أعداء هذه البلاد، بالتطرف... إننا جبناء في نظر أعيننا لأننا نحن الذين نوصف بالمتطرفين لم نتمكن إلا من قول رأينا، وفشلنا لحد الآن في تحويله إلى قوة مادية تغير

الواقع وتشيد بدله واقعا آخر.

من السهل على أعدائنا الذين يخافون من أن يفقدوا أوهامهم، أو عطف أسيادهم، أو بعض الامتيازات الحقيرة التي تجود بها عليهم الطغمة المتنفذة في البلد، من السهل عليهم أن يروا فينا متطرفين إرهابيين محبين للدم والمعارك لأن ما نقوله حق، ولا يعلو عليه شيء. نحن لسنا موهوبين مثل البعض لنعزف نفس اللحن الذي أعدوه للناس. نحن متطوعون تمكنا بالصدفة من أن نفهم قوانين التاريخ وقضايا الجدل، وها نحن نطبق ما فهمناه على واقعنا. نريد بلدا حرا، تسود فيه العدالة، والآراء التي تكون في مصلحة المجتمع. لا نريد بلدا تُعطى له حرية مسمومة، وأحزاب إما مسالمة وإما مصطنعة. نحن ضد نهب البلاد، نضع في أولى الأولويات الشغل والسكن والعلاج والتمدرس. أما الحريات الشكلية فلن تفرخ إلا الانتهازيين والوسطاء الطفيليين. إن من يُحب بلده، عليه أن يُفكر في الأسباب العميقة التي تُديم الأزمة. وعليه في نفس الوقت ألا يساوم، وأن يمتلك الشجاعة لقول الحقيقة...

انطلقت التصفيقات الموالية. انسحبتُ من الحلقة ومكثتُ بعيدا ببضعة أمتار منتظرة التحاقه بي. فعيناه كانتا تتفقدان وجودي

باستمرار. تعرفتُ فيه على خطيب ممتاز، وعلى شجاع من الطراز الأول. لم تُعجبني أفكاره. بدت لي حالمة وغير قابلة للتطبيق. فمن هو المجتمع الذي حل مشاكله حلا جذريا على يد متطرفين؟

التحق بي. صافحني بحرارة. كنتُ أرغب في أن يُقبلني في وجنتي. لكنه لم يتمكن هو الشجاع الذي يجابه دولة قوية قادرة على سحقه كما فعلتْ بآخرين. ولم تتوقف منذ ذلك الحين لقاءاتنا الحميمية. وجد كل واحد فينا ما يريده في الآخر. فأنا وجدتُ استقامة نادرة وأفكارا عميقة واحتراما متميزا. وهو بدوره وجد فيَّ الحياة. كنا نمارس الجنس بشهية كبرى. كنتُ أقود العمليات في البداية حتى اكتسب بعض الجرأة وتحرر وألِف محبة المتعة وعشق حمق اللذة.

وبعد ستة أشهر من الفرحة العنيفة، واللقاءات القوية، تغير مزاج محمود فجأة. لم يعد ينام. أخذ يُفرط في التدخين ويقرأ بنهم وثائق لا يرغب في أن يباغته أحد وهو يطلع عليها.

دخلتُ غرفته ذلك المساء. وجدته غارقا في النوم. فدفعني الفضول والحيرة لمعرفة ما يقرأه بكل هذه السرية غير المبررة.

فاندهشت لما رأيتُ. وجدتُ كراسات تتحدث عن استقطاب الجيش وتكوين خلايا عسكرية لدعم الثورة. أحسست ببرد الموت يلسعني. وعثرتُ أيضا على رسائل موجهة إليه تأمره بأن يتصل ببعض الأشخاص العسكريين وتكوينهم بالشكل الذي يتناسب مع فكر التنظيم. أصبتُ بالذعر. فمحمود إذن ينتمي لتنظيم سري. لم أستسغ إخفاءه عني هذه الحقيقة المرعبة. لقد خدعني إذن. ربما كنتُ في نظره ساذجة لن أتمكن أبدا من معرفة طبيعة ارتباطاته وخطورتها. لقد غدر بي. تمالكتُ نفسي. لم أشعر إلا وهو يحدق في معاتبا. تمالك نفسه وأطرق صامتا مدة طويلة ثم قال:

– الآن عرفتِ كل شيء. لم يعد من الممكن أن أخفي عنك شيئا. أنا متحمس جدا لهذه المهمة. إذا نجحتُ في ضم خلية عسكرية للتنظيم سيتغير كل شيء. فلحد الآن الكل يشعر بأن الطبقة العاملة غير مؤهلة سلميا لخوض معارك ثورية. ربما سيكون وجودك معي مهما لتمويه هويتي. فأنت الجميلة الحسناء لابد أنك ستبعدين عني بوجودك فكرة أي انتماء سياسي ثوري...

عجزتُ عن إجابته. فهو بالنسبة لي غادر. كما أن ضبطه لي متلبسة أمر مزعج. قبلتُ اقتراحه تحديا أو رغبة في معرفة المزيد،

أو ربما لكي أحـمي نفسي منه ومن المجهول. وبدأت أرافقه لاجتماعاته مع العسكريين. لم يتأخر كبير العسكريين في التعبير عن اهتمامه بي. بدأ ذلك بالاحترام المفرط المميز للبرجوازية، وبإثارة انتباه الآخرين إلى أهمية وجودي بينهم، وإلى التقدير الذي يكنه لي شخصيا. ثم انتقل الأمر إلى إبداء رغبته في مرافقتي، والحديث إلي، واتضح كل شيء حين عرض علي حمايته عند الحاجة. كان رجلا جذابا وقويا إضافة إلى موقعه العسكري وثقافته الغربية الملفتة للنظر. لكنني لم أستسغ لامبالاته بمحمود، فهو يعرف طبيعة علاقتنا. فاتحتُ محمود في الأمر بعد تردد كبير، منتظرة إصابته بحمى من الغضب والغيرة. لكنه فاجأني بابتسامة مبهمة دعَمها بجملة قاتلة:

– إن إيجاد نواة ثورية في الجيش مسألة حاسمة بالنسبة لنجاح الثورة. فلم تنجح أية ثورة ثورية في العالم دون مساهمة العسكريين الثوريين. حدث ذلك في روسيا وفي الصين. وحتى وإن وجدت ميليشيات ثورية، فلا بد من وجود امتداد لنا في الجيش حتى لا يتحول كل عملنا التاريخي إلى غبار. ولذلك فإن تضحيتنا لكسبهم تعد تضحية ضرورية.... ذُعرتُ. شعرت بالإهانة

والخيـانة. لم أكن أتوقع أن محمـود سوف يُعهِّرني للعسكري من أجل قضيتـه. أحسست أنني تحولتُ إلى قربان، إلى مجـرد أضحية بشرية. فما الفرق بين احتقار المرأة من طرف أعدائها والسمو بها إلى مرتبة القربان؟ هل يمكن لمن يتـحول البشر على يديه إلى أدوات أن يحافظ على محبته لوطنه خالصة؟. أفسد ذلك كل تصوراتي حوله. هل ضـحى بي من أجل قـضـيتـه أو من أجله هو؟ من أجـل نـجاحـه الشخصي؟ هل وعى بخطورة موقفه؟

انتصب حاجـز بيني وبينه، وفي نفس الوقت بيني وبين نفسي. ارتميتُ في أحضـان العسكري جثـة صاخبـة، حية راقـصة بدون حياة. شعـرتُ بأن محمود قتلني. أنا كنتُ حيـاته فصار هو موتي. انفصلتُ عنه. رفـضتُ رؤيته. وأقمتُ في مسكن العـسكري الفاخر. وبينما نحن ندخن ذات ليلة سألني العسكري:

– لم تسألي عن رفيقك محمود...

– لم أعرف أبداأحدا بهذا الإسم.

– أنا آسف. لكن من واجبي أن أقول لك إنه غـادر البلد سرا بعدما شعر أنك انقلبتِ ضده.

ضغط على ما تبقى من سيجارته في المنفضة وقال:

– هل أنتِ مستعدة للمغامرة؟

– أجبته بدون تردد:

– أنا مستعدة للجحيم. وأنتَ تعرف أنكم أنتم الجحيم. كان محمود ساذجا لذلك لم يعد يستحق الاحترام. فمنذ أن راهن عليكم، وضع حدا لحياته. لا أحد يمكنه أن يثق بالعسكريين. هناك شيء واحد يجب تمجيده: القوة. قوة السلاح، قوة المال وقوة الأنوثة.

ها أنت ترى يا وجهي كيف قادني محمود إلى قتله وقتل امتداداته. لا أعرف من أين نبع حقدي كله على من احترمته بدون حدود. ربما لم أكن إلا قناعا لضعف محمود، فساعدتني خيانته على إزالة القناع والظهور بوجهي الحقيقي... يا وجهي... هل سيفهم هؤلاء ذلك... اعذرني... حكايتي طويلة ومملة. أشعر الآن بالتعب. وداعا. سأحتمي بالنوم...»

تمددتْ فوق السرير على بطنها. باعدتْ بين فخذيها. تركت يداها ترتميان بعيدا عن وجهها ثم نامت.

5

لما فتح الرجل الصامت باب الغرفة، وجدها جاهزة في انتظاره. تبعته في صمت. ولما وصلت المكان المخصص لها في الساحة وجدت الجميع ينتظرها.

جلست. نظرت إلى الزعيم وهو يدخن غليونه في زهو ونشوة. تبادل بعض الإشارات مع مستشاريه، ثم اقترب منها وسألها:

– هل أنت مستعدة لمواجهة تاريخك؟ لمواجهتنا؟ لمواجهة

المجهول؟

– لا أعـرف. سأحـاول أن أقوم بما يناسب قـدرتي في هذا المكان. لست واثقة مما سيلحقني. أنا خائفة. فلحد الآن لا أعرف أين أنا. ولا من أنتم. رغم أنه هُيء إلي أنكم جماعة متطرفة لها خـطة متطرفة وترغب في فرض نظام متطـرف. وإلا... لماذا كل هذه السرية؟ وقبل ذلك، كيف أمكنم الإفـلات من العيـون الخبيـرة في اصطياد المارقين والجاحدين والمخربين...؟

ابتـسم العديد من مـستـشاري الزعـيم. ظل هو واقفـا في مكانه مـصوبا بصـره نحـوها. بدا وكأنه يرتب بضـعـة أفكار تتصـارع بداخله. تراجع قليلا إلى الوراء، وقال بلكنة ودية:

– أنتِ لستِ في معـتقل... أنت في قلعة. والفرق واضح. المعـتقل في هذه البلاد مكان للتدمير والقـتل المباشر أو البطيء. أما هنا، في هذه القلعة، الذي يـطلق عليها بعـضنا قلعة القصـاص، ونسميـها رسميا ب " مخيم الواجب " ، فنعمل جاهدين من أجل إعادة الأمور إلى نصابها... سلوكات جديدة، تربية بديلة، عمل من أجل الحقيقة، الرد على أعدائنا بعنف أعـنف من عنفهم. لأن تاريخ السلم معـهم فشل،

وهم يزدادون غطرسة كلما طال عمر نظامهم.

- ماهي أدلتكم ضدي؟ هل أنتم متأكدون من أنني أنا المعنية بهذا الأمر الذي لم يحدد بعد؟ ماذا لو كانت المذنبة، في نظركم، امرأة أخرى؟ ماذا لو كنتم قد أخطأتم هدفكم؟ وماذا لو كنتم الآن أمام مجرد راقصة... تجيد تحريك النهدين والردفين وتسيل لعاب الناظرين وترغم أيورهم على الانتصاب وشهواتهم على الاتقاد؟

- دليلنا هو وجودك هنا، في هذه الساحة... وحتى إن كنا قد أخطأنا... فأنت التي سوف تصححين مسار هذا الوضع. لكنك تعرفين، وانطلاقا من حِجَاجِك هذا، أن الواقع مخالف لما تقولين. فأنت الراقصة المتهمة باختراق التنظيم وإفساد حياة وروح أحد قادته. أنت التي قمت باستغلال ضعفه تجاه الأنثى واستعملت دهاءك وجمالك وكذلك المساعدات التي تلقيتها من مشغِّليك... لقد حانت ساعة الاعتراف... فلتُفتح الملفات.

سمعت صوت عربة متحركة خلفها. نظرت إلى مصدر الصوت فشاهدت شخصا بلباس طباخ يدفع آلة متحركة وُضعت فوقها قنينة ماء بلاستيكية، فنجانان من البلاسنتيك، مناديل ورقية،

أوراق وقلم. وبينما كانت هي منشغلة بمراقبة العربة، عاد الزعيم إلى مكانه.

واجهتها الساحة بحجمها المذهل ودقة تصميمها. بدت لها وكأنها ساحة مبارزة قديمة تنتهي دوما باحتفال ثري، أو حلبة منافسة وُدية. تذكرت كلمة "القصاص" التي لفظها الزعيم وهو يرد على سجالها حول أسس اتهامها. لم تستطع استنتاج ما تستبطنه هذه الكلمة وما تدل عليه في هذا المكان. فهؤلاء بكل تأكيد ليسوا من أنصار العودة إلى تطبيق الشرع وإلا لكان وضعها مختلفا. تناولت ورقة وقلما ودونت كلمة "قصاص" بخط كبير راسمة علامة استفهام بارزة أمامها.

انتبهت إلى أن الجميع ينتظر اعترافها. وتساءلت عن الآمال التي يعقدونها على اعتراف راقصة. حدقت في الزعيم مجددا، ثم وزعت نظراتها على المستشارين الواحد بعد الآخر وقالت:

– من السهل أن أقول أن الخيانة تُولِّد الخيانة، وأن الإحباط يُولِّد الانتقام، وأن المرارة تدفع متجرعها إلى البحث عن عسل حتى وإن كان على أطباق من سم... لكن هذا الكلام لم يقنعني أبدا. ربما يولد

البعض من الناس شـريرا، والبعض الآخر... يولد وهو عـبارة عن صـفحـة بيضـاء... أو ربما تُحدد أدوارنا بجـينات لا أحد لحـد الآن توصل إلى مـعرفـة أسرارها... من الـسهل أيضـا أن أنسب كل شيء للخـالق، لكن سـوف نرتطم بالجـدار الصلب العنيـد: كـيف يمكن للخالق أن يسـاعد الأشرار ويمكنهم من الفوز على الأخـيار؟ وكيف يمكن لله أن يتلذذ بـرؤية الأخيـار يتـعذبون ويُـنَكّل بهم على ممر القـرون؟ أنا مـتـأكـدة أنكم تعـرفـون تاريخ الأخـيـار، أي تاريخ المنهزمين... ببساطة أيها السادة... أنا رفضتُ أن أكون من المنهزمين. أنا أحب القوة، ولا أجد مبررا للحياة إلا بهذا المبدأ، حتى وإن أدى إلى الدمار. فالقوة لا تـعتبر قوة حقيـقية إلا إذا تركت آثارها على أرض الواقع: الدمار، الخـراب، القتل، التـشريد، الاعتـداء، النهب، السلب، الحرب، التـفجيـر، التدمير، الاغـتيال، الاعـتقال، الحـبس، السجن، الاغتصاب، العنف، الحرمان، التشويه، التجويع، الاضطهاد...

كان محمـود مجرد مبرر أُهدي لي لمعرفـة نفسي. أنا عاجزة عن معرفـة مصيري لو لم يحـاول تعهيري للـعسكر ونصرة قضـيته على حسابي. ربما كنت سأنفجر وأبيعه بشراسة لأعدائه بعد نضج الظروف... وربما كنت سـأنمحي من الوجود لأصـبح ظله كمـا هو

حال ما لا يعد وما لا يحصى من خلق الله.

بهرني محمود بذكائه، ومبادئه التي بدت لي أسلحة فتاكة تستطيع تدمير العالم إذا ناصرها الملايين... لكن هاهي تلك المبادئ تداس، تطبق ببلادة وقبل مجيء الأوان، لتدمير من يناصرها...

انغمست في حياة الملذات مع العسكري. لم أُحرم من أي شيء... جنس، نبيذ، سجائر، سيارات، خدم... كنت في المكان الذي أشعر أنني ولدتُ من أجله. لكن تلك الحياة سرعان ما بدت لي رتيبة وبليدة ولا تليق إلا بمية تحيى من أجل موت نفسها، تحيى بحياة جسدها. فرغبتُ بكل قوة في أن يكون لحياتي معنى خاصا بالنسبة لهؤلاء الذين يعتقدون أنهم يملكونني إلى الأبد... وجاء عرضهم بسرعة. استدعاني كبيرهم إلى مكتبه وقال لي:

– إنه ملف شائك. لم نجد لحد الآن من هو أكفأ منك لتحميله مسؤوليته. نريد اختراق تنظيم تخريبي مناهض لقيمنا وتابع لجهات أجنبية. ولكن ليست لدينا حجج ملموسة ضده تدل على خطورته ما عدا بعض البيانات والبلاغات والوثائق. يتزعم هذا التنظيم شخص من الصعب اصطياده بالوسائل التقليدية... يحب

الخمر والسياسة، وحتى إن أدخلناه السجن بتهمة احتساء الخمر فلن يغير رأيه. نسميه في ملفاتنا "الرفيق أبو خمرة". وملفه يحمل نفس الإسم. نريدك أن تجري "الرفيق أبا خمرة" إلى شباكنا. سنوفر لك كل شيء. وإذا تفوقتِ في هذه المهمة، فهناك ملف آخر ينتظرك بنفس الحجم والخطورة، ونحن واثقون من حنكتك.. لقد درسنا حالتك. وأنت تتمتعين بنفوذ هام في أوساطنا.

كان المتحدث قصير القامة، أصلع الرأس، منتفخ البطن، لا يكف عن التدخين، جاحظ العينين. تدل نظراته غير المستقرة على إدمانه على الكحول. يتوسط مكتبا ممتلئا بالملفات والمنضدات المليئة بأعقاب السجائر. تحدث بثقة وزهو. لم أحس ولو للحظة واحدة بأدنى رغبة جنسية في عينيه ولا في شفتيه. بدا لي وكأنه فقد قدرته الجنسية تماما. وربما كان ذلك هو ما يحركه ويثيره في عمله. كان المكتب باردا برودة جثة. بل شعرت أحيانا أنه مكان مقرف. تساءلت عن سر هذا القرف الملازم لهذا الجهاز. جدران متسخة، غرف باردة، وجوه آلية. كل شيء يظهر وكأنه عبارة عن ملفات. المشي. الكلام. الأوامر. الابتسامات النادرة. القهقهات البليدة. البذاءة...

أحسست بامـتعاض خاص وأنا أواجه إسـم الهدف "الرفيق أبو خمـرة". اقتادني المسؤول الكبـير إلى قسم الأرشـيف وأمر المكلف بتـسليمي المـلف المعني. تأبطتُ الملف وانزويت في ركن من أركـان القـاعـة. كنت أخــتلس بين الفـينة والأخـرى النـظر إلى صـاحب الأرشيف فأضبط عيناه مثبـتتان على نهدي. تنتابني فرحة عظمى كلما أحسستُ بحجم الأذى الذي يمكن أن ألحـقه بشخص ما بمجرد استعمال جسدي. تفـحصت الملف وسجلت المعلومات التي تبدو لي هامة.

قاطعها أحد المستشارين:

– مثل ماذا؟

– يتضمن الملف عـدة صور للمعني بالأمر وحده ورفـقة آخرين، ورقة تقنيـة عن حياته الشخـصية، جـردا للأماكن التي يرتادها، نقط ضعفه ونقط قوته. ولقد لاحظت أن نقطة ضعفه الأساسية هي الخمر. ولذلك لقب بالرفيق أبي خمرة، ونعت أيضا في ورقة أخرى بالجدار السـميك الذي يصعب اخـتراقه، ومن بين نقط قـوته قدرته على الحـركة الدائمـة، وقدرته على الجـمع بين الآراء، الشيء الذي

يحفظ التنظيم من التفكك...

استنتجت أن "الهدف" الذي كلفت بتحطيمه لا يترك إمكانية حقيقية لمن يريد الإيقاع به. فقررت أن أعد خطة محكمة. أصبح هذا الأمر مسألة شخصية. إنه التحدي، وربما الانتقام.

بدأت بالحضور للتجمعات التي يحضرها وبالخصوص لتلك التي يشارك فيها. وتعمدت أن أتواجد بالقرب منه حتى يتعود على وجهي، وبذلك لن أكون في حاجة لوساطة أي كان. استمر ذلك وقتا طويلا. فهو لم يأبه بي. وكان لا يرد على نظراتي إلا بالقدر الذي يبدو ذلك موضوعيا في تجمع سياسي أو ثقافي.

وذات مساء تقدمت نحوه بخطى أكيدة. اعترضت سبيله. ابتسمت له مبدية إعجابي به وقدمت نفسي محاولة أن أستفزه إلى أقصى حد:

– روزا...

ضحك. لم أتوقع ذلك، ورد بمرح:

–أهلا بك. هل بُعثت من جديد في هذا البلد. احذري. فالمرأة عندنا من عائلة الشياطين.

– اعذرني أيها الرفيق، أنا أحب هذا الإسم لرمزيته. لذلك فأنا أستعمله في الحالات الخاصة.

– وهل نحن في حالة خاصة؟ لم يسبق لي أن تعرفت عليك... يبدو أنك آتية من مكان آخر!

– كلا. أنا آتية من نفسي، من صمتي، من حياتي الخاصة. لم أعد أطيق عزلتي فخرجت إلى الضوء. هل يمكن أن نجلس لبعض الوقت لأحدثك عن غربتي التي قادتني إلى الرفض؟

– بالطبع، هذا واجب. لكن ليس الآن. يمكن أن نلتقي غدا. أمام باب الحديقة، ثم نختار المكان الملائم... موافقة؟

– بالطبع. إلى الغد إذن. شكرا لك. مع السلامة...

والتقينا في الغد. اتفقنا على أن نظل في الحديقة. مشينا صامتين وصدى خطواتنا يتردد في آذاننا. تتبعتُ حركاته وسكناته بانتباه قوي. كان يشبه آلة مبرمجة. لا يتأثر بما حوله. شديد الحذر. لا يثير الانتباه. كان يرتدي هنداما شائعا ويترك ذقنه بدون حلاقة لعدة أيام. يدخن سجائر عادية فرنسة الصنع. ولا يضع ساعة في معصمه... ربما لكي لا يتخذها أحد ما وسيلة للحديث

معه.

جلسنا في زاوية نائية وجد بها مقعد خشبي واحد. أخرج سجارته وقال لي وهو يستعد لإشعالها:

- لا أحب الغموض. أفضل الأفكار التي تبدو واضحة كالطرقات الفسيحة. اعذريني، لست رومانسيا. أنا أتيتُ من عذاب الناس وانخرطت بمحض إرادتي في مستقبلهم. وأنت من تكونين؟

ابتسمتُ. أدركت مراده. حدقت في عينيه. وأجبته:

- أريد معرفتك.

- ليس هناك ما يستحق أن يُعرف في حياتي. أنا نفسي لا أذكر أي شيء يمكن أن يميزني. ذبتُ في أفكاري وانمحيت من ذاكرتي الماضية.

- أنت تبالغ... أو على الأقل تقاوم ما بداخلك...

- ولماذا أنا بالذات؟ بإمكاني أن أفترض على الأقل أن في الأمر خدعة ما!

- إذا كنت عقلانيا فمن الصعب أن تفهمني. أنا لستُ فقط امرأة،

وإنما لي جنوني الخاص. أنا أرفض الوضع وأريد أن أساهم في بناء حلم مستقبلي. لكنني أريد أن أكون صحبة أشخاص أذكياء... مثلك. فهل ترفض صحبة امرأة مثلي.

- كلا. ليس من الصائب بتاتا فعل ذلك. لكن قد تصيبك المصائب بسببي. فنحن ملاحقون دائما. وقد نتعرض للاعتقال. وأنا لا أستحب أن يتعذب أي كان بسبب مواقفي!

- أنا أيضا تعرضت للإهانة والضرب والمطاردة بسبب مواقفي... بل وتعرضت للإغتصاب!

ارتسمت على وجهه علامات الاهتمام والدهشة. أطفأ سجارته. ضم يديه إلى صدره مُبديا رغبته في أن أوضح ما جرى. كنت قد أعددتُ حكاية مثيرة ومؤثرة تجعلني في قلب النضال دون أن يحتم علي ذلك أي ارتباط بأية مجموعة من المجموعات حتى لا ينفضح أمري. لم يكن جسدي مسألة عابرة بالنسبة له. لكنه ليس من النوع الذي تنسيه الرغبة، مهما كانت قوية، مبادئه وصيانة مُثُله. أخرجت منديلا ورقيا وجففت عرقا تسلل بين أصابعي وحكيتُ له الحكاية المعدة سلفا:

معه.

جلسنا في زاوية نائية وجد بها مقعد خشبي واحد. أخرج سجارته وقال لي وهو يستعد لإشعالها:

- لا أحب الغموض. أفضل الأفكار التي تبدو واضحة كالطرقات الفسيحة. اعذريني، لست رومانسيا. أنا أتيتُ من عذاب الناس وانخرطت بمحض إرادتي في مستقبلهم. وأنت من تكونين؟

ابتسمتُ. أدركت مراده. حدقت في عينيه. وأجبته:

- أريد معرفتك.

- ليس هناك ما يستحق أن يُعرف في حياتي. أنا نفسي لا أذكر أي شيء يمكن أن يميزني. ذبتُ في أفكاري وانمحيت من ذاكرتي الماضية.

- أنت تبالغ... أو على الأقل تقاوم ما بداخلك...

- ولماذا أنا بالذات؟ بإمكاني أن أفترض على الأقل أن في الأمر خدعة ما!

- إذا كنت عقلانيا فمن الصعب أن تفهمني. أنا لستُ فقط امرأة،

وإنما لي جنوني الخاص. أنا أرفض الوضع وأريد أن أساهم في بناء حلم مستقبلي. لكنني أريد أن أكون صحبة أشخاص أذكياء... مثلك. فهل ترفض صحبة امرأة مثلي.

– كلا. ليس من الصائب بتاتا فعل ذلك. لكن قد تصيبك المصائب بسببي. فنحن ملاحقون دائما. وقد نتعرض للاعتقال. وأنا لا أستحب أن يتعذب أي كان بسبب مواقفي!

– أنا أيضا تعرضت للإهانة والضرب والمطاردة بسبب مواقفي... بل وتعرضت للإغتصاب!

ارتسمت على وجهه علامات الاهتمام والدهشة. أطفأ سجارته. ضم يديه إلى صدره مُبديا رغبته في أن أوضح ما جرى. كنت قد أعددتُ حكاية مثيرة ومؤثرة تجعلني في قلب النضال دون أن يحتم علي ذلك أي ارتباط بأية مجموعة من المجموعات حتى لا ينفضح أمري. لم يكن جسدي مسألة عابرة بالنسبة له. لكنه ليس من النوع الذي تنسيه الرغبة، مهما كانت قوية، مبادئه وصيانة مُثُله. أخرجت منديلا ورقيا وجففت عرقا تسلل بين أصابعي وحكيتُ له الحكاية المعدة سلفا:

«– ذات يوم أفقت على قنبلة بين يدي. حلمتُ أنني اغتصبتُ من طرف عدة رجال في طريق عمومي. بكيتُ. تألمتُ. وقلّبتُ الأمر من كل جوانبه. لم أستطع أن أحكي حلمي لأي أحد. لكني قررت أن أفعل شيئا ما ضد الذين يتاجرون في أجساد النساء. اخترتُ طريقا بدا لي سهلا. قررتُ أن أنجز تقارير عن بعض شبكات الدعارة والإشارة إلى رؤوسها. تجولت في الأماكن المشبوهة لأتعرف على الضحايا وأقتفي أثرهن. حصلتُ في وقت وجيز على معلومات هامة.

تعرفتُ على فريدة في المقهى. أخبرتها بأنني أعرف كل شيء. وطلبتُ منها أن تحكي لي تفاصيل تلك الليلة. ضحكت ضحكة صاخبة أخجلتني. تمالكتُ نفسي. كان علي أن أتحمل كل شيء لصيق بذلك العالم. نفثت دخانا كثيفا من سجارتها ثم قالت:

– بدأت تلك الليلة صعبة ومخيفة وانتهت عجيبة. لقد أجبروني على امتطاء سيارتهم الفاخرة بدون مقدمات. وهددوني بالاعتداء علي إن أنا عصيتُ لهم أمرا أو فضحت لهم سرا... لم أفهم في البداية ما يريدونه مني. فليس هناك أي سر في عملنا. هناك فقط جنس وخمر وسجائر وحشيش ومال. توقفت السيارة الفاخرة أمام فيلا

كبيرة وأنيقة. فُتحت الأبواب. تم اقتيادي إلى الداخل عبر ممرات طويلة ووجدت نفسي وجها لوجه أمام رجل متقدم في السن أنثوي الملامح. أمر الجميع بالإنصراف وطلب مني الجلوس. سألني إن كنت أرغب في شرب مشروب ما. أجبته بأنني متعودة على شرب كل المشروبات. طمأنني. بدأ يداعب فخذيه. تتبعتُ يديه وهما تنتقلان من موضع لآخر على امتداد جسده. وفجأة فتح علبة جلدية جميلة بجانبه وتناول منها ذكرا اصطناعيا متوسط الحجم. رُعبتُ. اعتقدتُ أنه سوف يستعمله لتعذيبي. طلب مني أن أتجرد من ملابسي. وقفت أمامه عارية. ناولني الذكر الاصطناعي وأمرني أن أبلله بشفتي. تخلص من ثيابه. تمدد على بطنه وأشار إلى أن أدخله في ثقب مؤخرته بعد إعداده لذلك. كان الثقب واسعا. أدركتُ أنه شاذ . قلقتُ لمصيري. كيف سيثق بي ويأتمنني على سره. حاولتُ أن أتقن عملي ليعتقد أنني متعودة على القيام بذلك، وأنني لا أجد أي عيب في هذا السلوك.

تمنيتُ لو استطعتُ أن أُدخل لفتة ضخمة في ثقب مؤخرته، لفتة تخترق بطنه المليء بأموال الناس وآلامهم. لم يُرد منظر اللفتة الضخمة المتجولة في مؤخرته أن يغادر مخيلتي... أحيانا يُهيء

إلي أن الذكر البلاستيكي يستعد ليتحول إلى لفتة سوداء فريدة من نوعها أُعدت لهذا الرجل-الثقب... وسيكون المنظر رائعا حينما ترفض اللفتة الخروج، ويضطر الرجل-الثقب للذهاب إلى عمله واللفتة تتراقص وراءه، وجيش من الأطفال ينتظرونه بالصراخ والصفير أينما حل وارتحل.

تبين لي من خلال الصور المعلقة في البهو الضخم أنه شخصية هامة في البلد. وحينما تعب وأفرغ كل منيه في يديه توجه نحو الحمام. عاد وقد ارتدى مئزرا أبيضا. نادى عليهم وأوصاهم بحسن معاملتي. لكنهم هددوني في السيارة بأوخم العواقب إن أفشيت السر.

وهكذا جمعتُ عدة شهادات إلى أن وقعتُ في فخ مؤلم. وجدتُ نفسي ضحية بدوري. اقتادوني إلى إحدى الشقق الفخمة. وفرضوا علي ممارسة الجنس مع فتاة أخرى. كانت متمرسة على ذلك. بعد الإثارة الإجبارية اغتصبوني بوحشية طيلة ليلة كاملة. أحسستُ بقرف لا يوصف. انعزلتُ لمدة طويلة. اقتنيتُ عدة كتب بغية فهم ما جرى لي. حاولتُ أن أتبين مكمن الخلل. اهتديتُ إلى أن إصلاح البلد يتطلب مواجهة الداء الأصلي الذي تنبع منه كل الأمراض.»

بدأنا نلتقـي بانتظام. أحسستُ بتـقربه مني. وجـاء اليوم الذي كنتُ أنتظره: دعاني إلى بيته.

مشينا في زقاق ضيق قرابة عشرة دقائق. ملنا إلى اليمين ثم إلى اليسار. فـتح بابا قديما لازال يحتفـظ برونقه وصلابته. استـقبلَنا ممرٌ شبـه مظلم. أشعل عدة أعـواد ثقاب لإضـاءة الممر إلى أن دلفنا حجـرة مضـاءة ومجهـزة بطاولة أكل مسـتديرة وأربعـة كراسي تحلقت حولهـا. استرحنا برهة من الزمـن. خرج وعاد وقد أحـضر قنينة مـاء وكأسين من البلاسـتيك. لم أشـاهد أثرا للكتب والأوراق والأقلام أو حتى الجرائد. يبدو المكان وكـأنه لا يستعمل إلا نادرا. قد يخـيل للمرء أنه مـعد للاسـتـقبـال والاحتـفال. أمـسكني من يدي وجـذبني إليـه. خلتُ لأول وهلة أنه سـيـعـانقني، لكنه أشـار بأن أتبـعه. فـتح بابا في قلب جـدار. لا يمكن لأحد أن ينتـبه لوجـوده. اندهشتُ. حدق في وقال لي:

– لم تكوني تتوقعين أن تري ما رأيتِ!

– هذا رائع. مكتبـة في قلب منزل عـادي بعـيـد كل البـعـد عن الشبهة.

استدرك في الحين:

- لا توجد عندي ممنوعات. هذه كلها كتب مرخص بها. أتمنى ألا تتخيلي أمورا لا أساس لها من الصحة...!

أدركتُ نباهته. أراد أن ينهي بضربة قاضية كل احتمال يتعلق بالجانب الأمني. تركني وخرج.

تجولتُ في الغرفة-المكتبة. فهمتُ سر تفوقه وقدرته على هزم معارضيه. كتب غزيرة، مجلات. كل الأدراج مفتوحة. عُرض كل شيء علانية. استنتجتُ أن للأسرار أمكنة أخرى.

تكررت زياراتي لبيته. لكنه لم يسمح لي أن آتي إلا بصحبته. طلب مني ذلك المساء أن أقضي الليلة معه. قبلت مبدية فرحا لا يوصف. اشترى عدة علب من السجائر، قنينتي ويسكي من النوع الجيد، عدة قوارير من الجعة وأكلا وفيرا. جلس قبالتي في الغرفة-المكتبة. كانت الجلسة مريحة، لأن الأرائك اختيرت خصيصا للجلسات المطولة. سحب نفسا من سجارته وسألني:

- لماذا لا تدخنين؟

- أريد المحافظة على سلامة جهازي التنفسي... وعلى رشاقتي.

– والخمر... هل سيقتلك إن ذقته؟

– إن متمردة مثلي لا بد لها أن تمر من هذه التجربة... لكن!

– قبل أن تضيفي شيئا آخر، تفضلي، خذي هذه الكأس. أحب أن تشاركينني هذا الشراب الممتاز الذي يضل العقل ويريح النفس.

تناولت الكأس. جرعة منه، جرعة صغيرة، وقلت له:

– أفضل مزجه بالكوكاكولا... لكن لماذا يسكر المتمردون أمثالك؟ هل يشعرون أنهم يتحدَّون موروثهم؟ أم أن هذا يعني إثبات رغبتهم الدفينة في التملص من هويتهم التي تقوم على الدين رغما عن أنوفهم؟ هل يريدون مثلا ربط الصلة بما قبل الرسالة في صحراء العرب وبلاد الأمازيغ؟ هل الخمر جنة أخرى يدفن فيها العاجزون آمالهم وأحلامهم... ويعيشون حريات وهمية؟

أطال التحديق في وجهي. أطفأ سجارته. اقترب مني وقبلني في فمي. أحسستُ بحرارة جسده في كياني. أمسكتُ وجهه بين يدي. أدخلتُ لساني في فمه وقبلتُه قبلة طويلة أسكرتْهُ. استجمع قواه. اقترب من الطاولة التي تفصلنا وقال:

– أنا أرغب في مضاجعتك. وقبل ذلك أريد أن أقول شيئا...

– أنا مصغية إليك يا عزيزي...

– حـينما يفـهم أحـدنا ما يجـري في هذا البلد يجـد نفـسه أمـام خيارين: إمـا التمرد أو الموت. أما الموت فله وجوه عدة... أمـا التمرد فهو أن تتحول إلى قنبلة موقوتة قد تنفجر أو تُفجَّر في أي وقت. من يقوى على رؤية هذا الشعب المتخلف الجاهل الذي يجر وراءه وفوقه وتحته أسباب هزائمه الماضية والمستقبلية؟ من يستطيع أن يتحمل دناءة سلطة تقتل الناس وتعذبهم وتجوعـهم وتغتصبهم من أجل المال والنفوذ؟... إن هذا البلد يدفع الواحد منا، ليس فقط إلى السُّكر، وإنما إلى الانتحـار. إن رفض مـا يقع والمناداة بالـعـيش الكريم للجمـيع ليس فقط هدفا شـريفا، ولا يجب الدفـاع عنه فقط من أجل المتضررين، ولكن من أجل الأسوياء الـواعين الذين لا يستطيعون أن يعيشـوا وسط هذا الوباء. الخمر احتجاج. سـفر. هروب. وحتى إن مُنعت فسوف تُصنع وتسـتورد وتباع وتشترى. والتـاريخ يشهد على أن لا أحـد استطاع القـضاء عليـها. يناضل الواحـد منا السنين الطويلة وهو يعرف أنه لن ينال ما يفرحه، وأن أحسـن ما سيصيبه هو موتة هادئة أو تنكر مبرر من ذويه. والآن، اسمحي لي أن أروي عطشي من فـتاة جـميلة رغبـتْ بمحض إرادتها في مـرافقـة رفيق

مخمور يدافع عن غيبوبته...

قام من أريكته. قمت بدوري. تعانقنا. أراد أن يقترب مني فاصطدمتْ رجله بالطاولة فانقلبت. لم ينتبه لما فعل. غرق في تقبيل فمي. أخرج نهدي من مخبئيهما. سقط فوق أريكته. جرني إليه وأجلسني فوقه دون أن يتخلى فمه عن حلمتي. وبينما هو غارق في لعبة الطفل والأم هذه، لمحت بوابة صغيرة في الجهة الخلفية للطاولة، وقد ظهر عبرها ما يشبه أوراقا مشدودة إلى بعضها البعض. تخلصت من ثيابي. ساعدته على إزالة ملابسه. انقض علي برغبة نارية قوية. دمنا على تلك الحال ساعة تقريبا. انهار كلية. أشار إلى كأسه. ملأته له. أفرغه في جوفه. وضعتُ جزءا من حبة منوم في الكأس. ملأتها وقدمتها له. وبعد نصف ساعة غطَّ في نوم عميق.

فتحتُ البوابة السرية التي صُممت بشكل جيد خلف سطح الطاولة. أخرجتُ دفترا متوسط الحجم. فتحتُه. لم أصدق ما أرى. فالدفتر يحتوي على شبكة التنظيم وعدة أسماء وأماكن وأرقام وعناوين وخطط وبرامج. لم أكن أتصور أن أعثر على هذا الكنز الثمين بهذه السهولة. لم أكن أتصور أن الرفيق أبا خمرة، المسؤول

الخطير، سيقودني إلى حتفه وحتف رفاقه بهذه السرعة. صعقتُ. انتابني فرح شديد. صحوت من الصدمة. ارتديتُ ملابسي وغادرتُ المكان.

قدمتُ الوثيقة النادرة، بل والفريدة، للمسؤول الأول. لم يعرف كيف يشكرني. قبل رأسي واجتمع في الحين برؤسائه. بدأت الاعتقالات. تركوا الرفيق أبا خمرة ليكون آخر من يُعتقل حتى يذلوه وحتى يدرك رفاقه أنه باعهم. لكن الرفيق أبا خمرة لم يخرج من تلك الغرفة–المكتبة. ولما ذهبوا ليعتقلوه وجدوه قد انتحر. لقد انتحر الرفيق أبو خمرة لأن أمله ضاع وتنظيمه فكك وحلمه تفجر في فرج مخبرة وبين نهديها...

وبعد هذا النجاح كُلفتُ بمهمة أخرى أخطر من الأولى. أمرتُ بالتصدي لهدف آخر يدعى "الشيخ أبو نهدة"...

إن أطلتُم حياتي قليلا سأحكي لكم تفاصيل هذه المهمة الصعبة. وربما، بعد موتي، ستعلمون أنه لا مستقبل لكم أنتم أيضا مادمتم لا تعرفون أي أعداء تحاربون، ومادام يوجد في صفوفكم، بكل تأكيد، من سوف يدمّر أحلامكم...

6

هذه ليست حكاية. إنها مرارة. لم أخلق لأقص عليكم أيها السادة قصصا لخداعكم. لقد وجـدتُ نفسي مجبرة على إدانة نفسي. هل أنا التي قتلتُ الرفيق أبا خمرة؟ أم أن الخمرة هي التي قتلت الرفيق أبا خمـرة؟ وهل بالخمرة تُصنع الثورة؟ وهل الـتنظيم الذي تكتشف أسراره راقصةٌ مـثلي يمكنه أن يقود شعبا إلى النصـر؟ إنني متألمة أكـثر مـنكم ليس لما جـرى أو لما سيـجـري... ولكن لأن أعـدائي لم يكونوا أقـوياء، بل لقـد أعلنوا الحـرب وهم لا يملكون حـتى أعـواد ثقاب... أو خناجر صدئة...!

قال لي المسؤول الأول:

– لقد تمت ترقيتك. لم يستطع أحد من مخبرينا أن ينجز عملا مثل الذي أنجزته بدون خسارة وفي أسرع وقت. لقد استعملنا في حالات أخرى الأموال والتكوين وعدة معدات دون أن نصل إلى نتائج مرضية، بل لقد استعملنا التعذيب والتصفية الجسدية ولم نصل إلا لنتائج هزيلة. لذلك، سنضع بين يديك هذا الملف العسير الذي يحمل اسم "الشيخ أبو نهدة"...

لاحظ استغرابي لسماعي هذا الاسم المثير. وقبل أن أستفسر عن مغزى هذه التسمية قال موضحا:

– حكى لنا أحد المخبرين أن الشيخ قبل أن يلتحق بالجماعة كان يتناول سبحة ويقول لصحبه: "لو أن كل حبة من حبات هذه السبحة كانت نهدة... لما توقفتُ عن التسبيح شكرا لله حتى يأخذ سبحانه روحي إلي عذابه أو إلى عفوه". ولما كان بعضهم ينبهه إلى أن الصحيح هو النهد، كان يرد بأنه "لا يليق بمخلوق أنثوي يُسكر العقلَ أن يُذَكَّر".

انكببتُ على الملف الجديد. تأملتُ وجه الشيخ أبي نهدة. بدا لي قبيحا للغاية. عثرتُ على ورقة تتحدث عن ماضيه قبل أن يلتحق

بالتنظيم. كان مولعا بالنساء. لكن قبح خلقته وخشونة سلوكه كانا سدا منيعا بينه وبين النساء. فعانى من ذلك أشد المعاناة. تعاطى في فترة من حياته للواط. ثم اكتشف طريق المسجد وأوصله ذلك إلى الدعوة. فأصبح داعية لا يتعب.

قلّبتُ أوراق الملف محاولة إيجاد ثغرة أنفذ منها لحياة هذا الشيخ. أحسستُ بضغط في رأسي. تعبتُ... لاحظ صاحب الأرشيف توتري. اقترب مني وقال:

– الآن، سوف تغيرين جلدك لتصلي إلي الشخ أبي نهدة... ربما ستتقمصين دور رابعة العدوية الصوفية الشهيرة...

قمت للتو من مكاني. ناولته ملفّه. شكرته وخرجتُ فرحة. لقد أمدني بفكرة جهنمية. دخلتُ مكتب المسؤول. تركت جسدي يسقط فوق الكرسي اللصيق بمكتبه:

– أريد منزلا فاخرا في مكان هادئ، خادمة وعبدا أسود...

– ماذا تقولين؟ وأين سنجد لك العبد الأسود؟ هل سنستورده من السودان أو من السينغال؟

– لقد وجدتُ خطة لإسقاط الشيخ أبي نهدة في الفخ. سوف أقدم نفسي كامرأة تابت عن خطاياها، امرأة غنية ورثت المنزل

والخادمة والعبد والمال. وترغب في الإحسان وإصلاح نفسها طلبا للمغفرة. ولهذا فسوف تحتاج لرجل دين متضلع وثقة... مثل الشيخ أبي نهدة... ولا داعي لذكر التفاصيل فهي تتحول إلى شبكة عنكبوت في ذهني...

دَوَّن معلومات على ورقة. نادى على أحدهم وأمره أن يسلم الورقة لشخص آخر. فهمتُ من أوامره أنه المسؤول التقني، أي رئيس قسم البنايات وما يلزمها من إعداد وعدة. وعدني بأنني سألتحق بمقر سكني الجديد بعد أسبوع...

أرسلتُ العبد الأسود والذي هو أيضا مخبر تابع للجهاز إلى الشيخ أبي نهدة ومعه هدية نقدية ومجوهرات ورسالة مني شرحتُ له فيها وضعي وطلبتُ منه زيارتي لأمر هام يخص ديني وعقيدتي...

لم أنتظر طويلا. استقبلتُ الشيخ أبا نهدة وقد ارتديتُ لباسا أسود يحجبُ كل جسدي ماعدا وجهي. أمرتُ العبد بأن يجلس عند باب البهو حتى لا يسقط الشيخ فيما حرم الخالق باختلائه بغريبة...

جعلتُ صوتي يأتيه هادئا ضعيفا:

– أنا ياسيدي أجهل ما بي. لكني متـأكدة، بعدما جربتُ السحرة والعرافين، والعيـاذ بالله، والأطباء المدعين الذين يتبـجحون بآلات الغرب الكافر، متأكدة أن شفائي لا يوجد إلا في القرآن الكريم...

تململ الشيخ أبو نـهدة في مكانه رفع بصره تجـاهي وخاطبني بهدوء:

– هداك الله إلى طريق الخير. والجماعة تشكرك على هديتك...

– سـوف لن أبـخل عليكم بشيء مـادام يرضي الله ويسـاعـد عباده...

– جازاك الله خيرا. سوف أرتل بعض الآيات من الذكر الحكيم... واسمـحي لي بأن أضع يدي على رأسك كـما هي العـادة متمـنيا أن يشفيك الله تعالى...

قـرأ الشـيخ أبو نهـدة آيات من القـرآن الكريم. كان صـادقـا في قراءته. مـتخشـعـا حتى أبكى العـبد المخبـر. ثم انطلقتُ في هذيان مصطنع:

– لا ترموني من أعلى رأسي.. أنا لم أعـد أحب الطيور... أتيتُ من ثقب قديم في جدار دمرته الخصومات... أين الطريق؟ هل بإمكانكم أن تلمـسـوا وجهي، يدي وعـنقي؟ آه! كم أنا جـميلة! هل حـقـا أنا

أستحق الحياة؟ لماذا اعتديتم علي؟ لماذا سكنتم جسدي؟ ماهو ذنبي؟ هل أسأتُ لأحدكم؟ هذا منزلي. لا يمكن أن تطردوني منه. لا تلمسوا نهدي. اتركوا وجهي. اخرجوا مني...

وبدأت أصرخ وأنزع ثيابي. أمسكني الشيخ أبو نهدة. ضغط على أصابعي. أمر العبد بأن يأتي بسكين وبصلة وكأس من الماء البارد.

نسي الشيخ أبو نهدة كوني أنثى وتعامل معي كمريضة. أحضر العبد ما طلبه منه. وضع السكين تحت رأسي. وقرب البصلة من أنفي. ورش بعضا من الماء البارد على وجهي. أمسكتُ يده وقبلتها في وقار واسترخيتُ.

تكررت زيارة الشيخ أبي نهدة حتى أصبح مجيئه للبيت أمرا عاديا، واطمأن على نفسه وسمعته وأمنه. وشرع العبد في التغيب بأمر مني. وتعود الشيخ على غيابه وإطلالة الخادمة عند الحاجة.

ولما أتت اللحظة المناسبة، اصطنعتُ حالة المس وانقضضتُ على الشيخ وأدخلتُ يدي داخل سرواله، أمسكت ذكره وبدأت أداعبه. حاول الإفلات مني مرددا ايات من الذكر الحكيم، لكنه لم يستطع لسرعة حركتي ولخوفه من الأذى الذي قد يصيبه. سرعان ما شعرت برضاه. استرخى وأكملت العملية دون أن أظهر أنني عدتُ

لحالتي الطبيعية. ردد كلاما غير مفهوم تخللته عبارات دينية. استرخيتُ بدوري وتظاهرتُ بالنوم لكي يظن الشيخ أن علاجي لن يكون إلا على يديه.

وهكذا تعود الشيخ أبو نهدة شيئا فشيئا على الوضع الجديد. واعتاد على مضاجعتي وأنا أصطنع حالة المس. وبلغ به الجنون في إحدى المرات إلى تجريدي كلية من ثيابي وإيقافي مسندا جسدي على أريكة. تناول كوبا كبيرا من الماء وأراقه فوق رقبتي، وشرب كل القطرات التي تمكن من التقاطها بفمه قبل أن تضيع قرب قدمي. كان منظره يشبه سكيرا يشرب خمرته وهي تتدفق من ثنايا جسد امرأة، تضاعفت قوته. وأخذ يذكر الله ويردد أدعية اختلط فيها الشكر على تعويضه عن الحرمان وطلب المغفرة عن الخطايا التي لم يلجأ إليها بمحض إرادته.

وذات مرة قلتُ له:

– أشعر وكأن الجن يضاجعني. لكنه يتجسد لي في بشري. وأحيانا يبدو لي أن هذا البشري يشبهك كثيرا. فهل يمكن للجن أن يتخذوا صفات الإنس؟

أحس الشيخ أبو نهدة بحرج. أخرج سبحة من جيبه وشرع

يتلاعب بحباتها لبعض الوقت ثم قال:

– للجن القدرة على اتخاذ جميع الصفات لأنه لامادي. لذلك فهو لا يوجد حقا إلا حينما يستوطن جسدا بشريا أو أي كائن آخر.

– ولماذا يقصد الجن بعض الناس دون البعض الآخر؟

– الله وحده يعلم. لكن قد يكون ذلك ما اختاره الله لهم أو ما كتبه عليهم...

– لكن ألا يجب أن يكون هناك سبب واضح حتى لا يشعر الناس بالظلم... ثم ماذا لوكان الأمر كله تهيآت؟

– الجن مذكور في القرآن الكريم. والعديد من حفظة القرآن الكريم تصدوا له وتلقوا تهديدات منه...

– هل الأمر خاص فقط بالمسلمين أم أن هناك جن يهود وجن مسيحيون وجن ملحدون...

– هذه أسئلة صعبة ليس بإمكاني الإجابة عنها. لكن التأكيد على ماهو أساسي ونافع للناس...

– مثل ماذا؟

– تخليص الناس من الزوائد والشوائب وتسهيل عودتهم

للدين... فالكثير من الأسئلة هي وليدة التربية غير الدينية..

- لكن يا شيخ...

- تطبيق الشريعة هو الحل... هذا الحل...

- روحي فداء لتطبيق الشريعة.. لكن...

نهض الشيخ. وضع يده على رأسي. تمتم بكلام غير مسموع. تفحص ثيابه وبعدما تأكد بأن كل شيء على ما يرام خاطبني بهدوء:

- سآتي في الغد صحبة بعض حفظة القرآن الكريم لتطهير المكان بتلاوة آيات من الذكر الحكيم. فأعدي لهم عشاء يليق بمقامهم...

- سأفعل إن شاء الله ما طلبته مني. أريد شفاء نفسي من الأذى الذي لحق بها.

- سيشفيك الله. السلام عليكم.

غصت القاعة بأصحاب الشيخ. جلست في زواية بعيدة عنهم شيئا ما. أعددت كل شيء قبل مجيئهم. قدم العبد الشاي. وبدأ الحاضرون يتبادلون الآراء في مواضيع مختلفة. أنصت لهم

محاولة التعرف على الأطر المؤثرة.

قال أحدهم:

– لقد أكرمنا الله بالإسلام. وضمّنه كل شيء. لكن الناس عمي لا يبصرون وصم لا يسمعون. فنحن مأمورون بالتطبيق.

– لكن من سيطبق؟

– الحكام. عليهم أن يفرضوا شرع الله على الجميع. فشرع الله لا يناقش ولا يُصوّت عليه ولا تتنافس على فهمه الأحزاب حسب هواها!

– هل طُبّق الشرع تطبيقا تاما في يوم من الأيام؟

كان السائل شابا يبدو عليه القلق والفرح في نفس الوقت. أجابه الشيخ أبو نهدة:

– الإسلام دين يسر، وهو لا يطبق بالقوة مرة واحدة وعلى الفور. ففي البداية، ترك الله عز وجل للناس مهلة للإستئناس. ثم أتت ظروف خاصة جعلت بعض الخلفاء مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعطل تطبيق الحد على السارق وعلى شارب الخمر...

– هل نستنتج من ذلك أنه يمكن تعطيل تـطبيق الحدود لظروف خاصة؟

سـادت جلبة في البـهو. تكـلم الجمـيع في نفس الوقت دون أن ينصت بعضهم للبعض الآخر:

– لا يمكن تعطيل تطبيق أي حد من الحدود...

– الذين ينبشون في تاريخ الإسلام لا يفعلون ذلك ببراءة...

– ربما لم يقم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتعطيل أي حد من الحدود الشرعية، وإنما هي أكاذيب وإسرائيليات...

– أيها الإخـوان... نحن متـهمون بالرجـعية وبمسـاندة النظام وبعـدم التعـرض في أي وقت من الأوقات للإعـتقـالات والتعـذيب والاغتيالات. بل نحن متهمون بأننا يد النظام لاغتيال خصومه.

توقف الجـمـيع عن الكـلام. وُضـعت الكؤوس فـوق الطاولات. تبادل الجميع النظـرات والاستفهامات. اعتـدل أحدهم في جلسته. تجول ببصره في وجوه الحاضرين وقال:

– المسلم لا يعـادي أخاه المسلم سـواء كان حـاكمـا أو محكومـا. ودعوتنا هي أولا ضد الشرك والإلحاد، وضد الذين يريدون تطبيق أنظمة سياسية أخـرى غير شرع الله. لذلك، لا يمكن أن نكون أعداء

للأنظمة التي تقر بالإسلام ولو شكليا، لكننا لا يمكن أن نهادن من لا يطبق الشرع حتى وإن حل جميع مشاكل البلاد، حتى وإن رضي عنه الشعب كله. لذلك كله، لم توجد أسباب كافية لنحارب النظام حربا استراتيجية. هناك بالفعل بعض المناوشات، وبعض الخلافات الحادة، وأحيانا هناك بعض الإنفلاتات من طرفنا أو من طرف النظام، لكن سبحان الله سرعان ما تعود الأمور إلى نصابها حتى وإن ظلت توترات معينة مستمرة لسنة أو أكثر. إن مشكلتنا أيها الإخوان هي كيف نستطيع أن نقنع الأغلبية المتغربة بالعودة إلى تطبيق شرع الله...

تنَحْنَحتُ لجلب انتباههم إلى رغبتي في الكلام. ولما استعدوا للإصغاء إلى ما سأقوله خفضتُ رأسي قليلا وقلتُ:

– اسمحوا لهذه الأمة الضعيفة بالإستفادة من علمكم، جازاكم الله خيرا. فهل يُعقل اليوم، في وقتنا هذا، أن تُعد ساحات في كل بلدة ومدينة لجلد شاربي الخمر علانية، ولجلد الزاني والزانية، ولرجم الزناة المحصنين والمحصنات، ولقطع أيادي اللصوص؟ فإذا كان عدد شاربي الخمر في الماضي لا يتجاوز عشرة أشخاص، فهو اليوم يتجاوز المليون أو المليونين! وإذا كان الزنا استثناء فهو اليوم، والعياذ بالله، قاعدة! فهل ستُخصص آلاف الساحات،

ويوظف آلاف الأشخاص لجلد ملايين الناس وقطع ملايين الأيادي؟ وماذا ستكون النتيجة؟ شعب مجلود ومعوق... أليس هذا أمرا مستحيلا اليوم؟ ولا تجيبوني، حفظكم الله ورعاكم، بالقول بأن تطبيق الحدود الشرعية سوف يردع الناس وسوف تنعدم على إثر ذلك السرقة والزنا! فالشرع مطلق ولا يمكن نسخ أي حكم من أحكامه بعد تتمة رسالة نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه. فالآفات أبدية، تلازم البشرية إلى ما لانهاية. وكما قال الأخ الفاضل: هناك حالة، وليست اعتباطية، وهي تجربة تعطيل تطبيق بعض الحدود الشرعية لأسباب وظروف خاصة. ولم يقم بها مجتهد عادي، بل قام بها صحابي جليل، وخليفة مرموق لُقب بالفاروق... وأنا هنا مجرد متسائلة حائرة أبحث عن رضى الله وغفرانه، وطمأنة نفسي الأمارة بالسوء...

تدخل الشيخ أبو خمرة بسرعة لإنقاذ الموقف:

- إن السؤال مشروع. لكن ليطمئن بال الأخت الكريمة، فالله قادر على حفظ دينه، وعلى هداية عباده... ولا ننسى أننا هنا من أجل قضاء ليلة قرآنية لطمأنة أختنا الكريمة على حالها وسكنها...

بدأت قراءة القرآن الكريم. بقيتُ في مكاني أنصت إلى السورة تلو الأخرى. كانت أصواتهم قوية ومؤثرة. ثم توقفوا ليستريحوا.

تناولوا عشاءهم. قُدم لهم الشاي من جديد، واستأنفوا القراءة.

تعبتُ. توجـهتُ إلى غرفتي لأنام. وقبل أن أغـرق في عالم آخر، قلتُ لنفسي أن الوقت قد حان لتوريط الشيخ أبي خمرة.

أطفأت النور بعـدما نزعتُ ثيابي. انسلـلتُ تحت غطاء السرير. تقلّبتُ يمينا ويسارا. أحسـستُ برأسي يثقل شيئا فشـيئا، وبعيني تنفلتـان مني. حاولتُ أن أرفع يدي لاسـترجاعـهما فـأدركت أنني مقيدة بالحديد ومثبتـة على جدار أسود. أنا الآن واقفة عارية تماما. صلبتُ. نهدايا بارزتان وحلمتاي منتصبتان. أشخاص كثيرون في الغـرفـة بشـوارب طويـلة يغطون عـوراتهم بعنـاقـيـد من العنب ويجرون خلف بعضهم البعض. كل واحد منهم يحاول قطف حبات عنب من عناقـيد الآخرين. فـجأة توقفـوا عن الجري، اقـتربوا مني. حدقـوا في. حمـلوا عناقيـدهم في أيديهم اليمنـى وعصروهـا فوق نهدي. ثم بدأوا يحـتسـون عصيـر العنب المتدفق على فـخذي. فكوا قيودي. وضعوني في الوسط وبدأوا يلـطمون جسدي بما تبقى من العناقـيد. نزعوا أحـذيتم التي تشـبه شجـيرات برتقـال صغـيرة وشرعوا يضـربونني على ردفي وخصري وكتفي. أحـسستُ بتبلل يغـمرني وبحـرارة تسري في جـسدي كله اسـتعـدادا لاسـتقبـال أيورهم. ثم تملكـهم الغـضب. صـرخـوا. رأيت شـعـرا يخـرج من

وجوههم. صغـرت أرجلهم وأيديهم. كبرت رؤوسهم. اقـتربوا مني أكثر فأكثر. صرخت واستيقظتُ.

وجدتُ الخادمـة تناديني. أحسست باختناق حـاد. طلبت كوب ماء. استفسرتها عما تريده بنظرة مثقلة بالألم...

- لقد انصرف الجميع وأغلقتُ الباب وراءهم. لكن الشيخ قال أنه سيعود مساء الغد.

أخـبرتُ المسـؤول الأول على أن الوقت قـد حان ليـنقضـوا على الشيخ. شرحتُ له الخطة بالتفصيل.

وبينما أنا أعيش حالة المس المعتادة، والشيخ يضاجعني بجرأة كالعادة، دخل علينا المخبرون وصوروا الحالة التي وجدونا فيها، واقتـادونا إلى مكان خاص وأجبـروا الشيخ أبا نهدة على التـعامل معهم.

وبعـد نجـاحي في هذا الملف أصـابني جنون خـاص. فنفـوذي تعاظم. وقـوتي أصبحت أمـرا لا ريب فيه. ووصـل اسمي إلى أعلى المسؤولين، لكنني لم ألتق قط بالشيخ أبي نهدة المسكين. ولما سألتُ عنه، قالوا لي أنه هاجر.

تأملتُ بمرارة مآل الرفـيق أبي خمرة الذي انتحـر، والشيخ أبي

نهدة الذي هاجر! فهل هي الصدفة أم انتقام المجهول؟

وأمام هذه المرارة، قررتُ أن أشتغل لحسابي الخاص. وبدأت في إعداد مخطط لقبر من أعتبرهم أعداء لي. فالتجأتُ للمقبرة. وهنا بدأت حكايتكم معي. وها أنتم تجبرونني على أن أصبح أنا أيضا مقبرة أحكي لكم عن الأموات الذين بداخلي...

أما الآن فلم يعد عندي ما أضيفه. لست مذنبة ولا نادمة. فمصير الناس واحد. لو لم أكن التي نفذت ذلك لنفذه شخص آخر. فالقتل لا يكون أبدا فرديا. إن الجماعة هي التي تخول لبعض أفرادها ممارسة القتل لأنها جماعة قاتلة.

اقترب منها المقرر وسألها:

– هل ستضيفين شيئا ما؟

– كلا . انتهى كل شيء.

ثم دنا من الزعيم وتبادلا بعض الكلمات، وتوجه نحو المستشارين وبعد أخذ ورد قال:

– ستُعقد جلسة أخيرة غدا لمعرفة الحكم وتنفيذه.

7

بعـدما ولجت غـرفتـها أغلق الرجل الصـامت الباب وانصـرف. سمـعت خطواته تبتعد عنهـا شيئـا فشيئـا. استلقت على الأريكة. نزعت حذاءها مـستعـملة رجليها. أحـست باختناق. ألقت بيـديها بعـيدا عنهـا. أغمـضت عينيـهـا. بدت صور من مـاضيـها تخـتلط بحاضرها. بدا لها حاضرها حلما لا ينتهي. لم تكن تتوقع أن تسقط في هذا الفخ. ولم تكن تشك في أن مستخدميـها سيعجزون إلى هذا

الحد عن إنقاذها بل وحتى على معرفة مكان احتجازها.

انتابتها رغبة في البكاء، ثم في الضحك. لم تعد تعرف هل لازال بالإمكان أن تقلق على حالتها. تساءلت في قرارة نفسها عن مصير الذين أبيدوا من طرف الجهاز الذي شغّلها... وتذكرت قبورها السبعة والحفار الذي صمد بين الحياة والموت. نهضت للتوّ وتوجهت نحو خزانة الكتب. تأملت الكتب المصطفة كجنود أمامها. خُيل لها أنها تبتسم لها. خطرت لها فكرة أدخلت قليلا من الطمأنينة على نفسها:

– سأكتب رسالة للحفار. وحتى إن لم تصله فسوف يقرأها حفار آخر... آمل ذلك على الأقل. إنه الخيار الوحيد الذي أجده أمامي الآن.

تجردت من لباسها كأنما تبحث عن طهارة خاصة وعن فضاء لا تحده قيود. وشرعت في الكتابة:

«أيها الحفار، ياحارس قبوري.

أنت الآن لا تعرف أين أنا، ولا المصير الذي ينتظرني. ولا أعرف هل تخلصت من خوفك، أم لازلت تعيش تحت وطأة التهديد.

تساءلتَ باستمرار، وبالخصـوص في آخر لقاء، عمن أكون! وكنت تحس بحسك السليم وبمعـاشرتك للموتى أنني أحمل مـعي ألغازا وأسرارا، وأني أعـاشر قومـا أقوياء... ها أناذي الآن لا زلت صحـبة أناس أقوياء، لكن هذه المرة كرهينة وكسيجنة...

أنت تدرك كم أنا مغـرمة بقبـوري السبعـة. وها أناذي أتذكرها، حتى وأنا علـى حافة الموت. لقـد علمتني الحـياة ألا أنسى أبدا، وأن أمجد الانتقام، وأن أنبذ التـردد... رغم أن هذه الخصال لم تقد دوما إلى السعادة... ولكنهـا حتما كانت تقـدم لصاحبها عظمـة ومجدا وكبرياء.

إن أردتُ أن أعرِّف نفسي فسأقول: أنا متمردة على ذاكرة، صُنعت من القهر والاعتقـال والإبادة، وعاشت في كنف الخوف. وكان أقرب الناس إلي أكـثرهم تجـسيـدا لهـذه الذاكرة... لكنه كـان في نظري أضـعف الناس. لذلك فـهمت أن الطريق الـذي سلكه رغم أنه طريق نبيل، فـهو طريق الضـعفاء والمنهـزمين والفارين والمغـتالين. لذلك فالقبور السبعـة، التي أحثك على العناية بها أشد ما تكون العناية، هي رمز للخلاص من هذه الذاكرة.

حـفرتُه بدون شـفقـة ولا رحمـة في سمـائي، وأعطيتـه مكانة خاصـة في حياتي. عـاش في ذهني قبل أن يصـبح حقيـقة تنتظر التحـول إلى تاريخ. قـبر خاص بالقـتلة الأوائل. أولائك المجـرمون الذين أُخذَتْ منـهم القلوب والأفئدة، وصـاروا آلات طاغيـة. تعلموا التـعذيب والتـشـويه والقتل عـلى سد النصـارى. كـانوا خدامـهم الطيعين وأدواتهم الحقـيرة. قبر حقـد وتعجب: فكيف أمكن تحول عبيد الإستعمار وعيون النصارى إلى حكام ماسكين برقاب العباد؟ وكيف صـمت عن هذه الجريمـة كل من عرفـهم وخبرهم؟ كـيف لم يدخل الناس إلى بيـوتهم ويقـفلون الأبواب عليـهم ويضـربون عن الكلام والطعام تاركينهم يمشـون وحدهم في طرقات البلاد إلى أن تبـتلعهم الأرض؟ كـانوا عـبارة عن آلـة حربيـة فتـاكـة يعيـدون للإستـعمار أمجاده ومـصالحه ويفسـدون كل ما أصلحتـه مبادئ البعض الذين توقفوا في منتصف الطريق. هذه الآلة، هذه العصابة المسلحة أعددت لها القبر الأول، الأعمق، الأخطر، قبر يقود قعره إلى جـهنم، بدون وسـائط، بدون أسـئلة ولا ملفـات، فـهـؤلاء القـتلة

يوجدون خارج كل تصنيف: فـلا هم بالمتمردين، ولا بالمرتدين، ولا بالفـاسقين، ولا بالمغضـوب عليهم، ولا بالمـنافقين... إنهم مـرتزقة قتلة.

زار كبيـرهم ذات يوم والدي مصحوبا بعنصـرين بلباس مدني. دخلوا بعنف، قهقه كبيرهم بسخرية وقال:

– ها أنت تنعم بـالأمـان الآن. أنا أعـرف أنه لم تعـد لك عـلاقـة بأصحـابك المجانين، ولكنـني لا أحب أن تشعر بـالأمان، لا أنت ولا أهلك... ولكم تمنيتُ لو اتخذت موقفا آخر لأجد متعة أكبر في تمزيق أحشائك.

لم يتكلم أحد. اقترب من الطاولـة الممتلئة بكؤوس الشاي، نادى على مرافقيه وأمرهما بالتبول في الكؤوس.

لم يتكلم أحد. فـالجميع على علم بالذين اعـتقلوا ولم يروا النور بعد ذلك، وبالأكياس الشهيرة التي كـان يدفن فيها المغضوب عليه، بسبب أو بدون سبب، بعد تكبيل يديه ورجليه وإغلاق فمه بشريط لاصق بني.

من كان يجب عليه حماية الناس من هؤلاء الكلاب؟ من كان يجب

عليـه تجنيـب الناس الموت على أيدي السـفـاكـين؟ وكم من الناس اختطفوا وعذبوا من أجل اغتصاب نسائهم وبناتهم وسرقة أموالهم وأراضيهم؟ وكم منهم قتلوا بسبب انتـقام شخصي؟ أما الذين كانوا يدافعون عن رأي أو عقيدة فكانوا من أغـلبية الضحايا. ولم أفهم أبدا لماذا لم يُحاكم قادتهم الذين لم يستطيعوا إنقاذهم من ذلك الجحيم! وتسـاءلت دائما لماذا لم تنقطع الصـلات بين بعض القـادة ورموز السفاكين؟

ها أنت بدأت تفـهم، بدون شك، أيها الحـفار، أن الذاكـرة ذاكرات، وأن الوجـه وجـوه، وأن القوة الـتي أبحث عنهـا كانت قـد دمـرت كرامتي. لا أحب المنهزمين ولا أرغب في الإنتماء لجماعتهم حتى وإن كانوا على صواب. فالتاريخ لا يصنعه إلا الأقوياء، أولائك الجسورين المغامرين حـتى وإن كانوا على خطأ. والدليل... ها أنا أحكي لك عن جلاد كبير صنع التاريخ... دون الإشارة للأجساد التي سحقها من أجل ذلك. لهذا السبب لا بد له من قبر كبير، وعذاب كبير وحقد كبير.

القبر الثاني...

حـفـرتُه لورثة القـتلة وتلامـذتهم. أولائك الذي اندسـوا في كل الأجهـزة، وفي جميع المدن واكـتروا وجوها آدمـية واختـبؤوا في

أمكنة سـرية وبدؤوا ينقبـون على كل من يمكنه أن يكون عـدوا أو عدوا لصـديق أو مشكوكا في ولائه أو مزعـجا أو من بإمكانه أن يلد مزعجـا أو مزعجة، أو من له علاقة مـشتبه فيـها مع كل من وما من شـأنه... وهكذا. ورثة أشـبـاح يضربـون في الليل، يقـتلون الناس بوحشـية ويوزعون الابتـسامات على المارة بعـد ذلك بقليل. ورثة جسـدوا تاريخا دمـويا يليق بشعب بلـيد ضحى من أجل أن يُـقتَل، وجـاهد من أجل أن يُذل، وقـاوم من أجل أن يُعتـقَل. قـبـر بأسمـاء وأرقام.

قـبر مـضـحك، لأنه يجـمع عـقولا مـحـتـالة زَرَعَتْ في كل ركن متعاونا، وفي كل مـجموعة مخبرا، وفي كل زقاق عيـنا. قبر لحقراء تحكموا في من كانوا يظهرون للناس أنهم أسياد.

القبر الثالث...

حفرتُه بأسى. فـبعدما مات والدي موتة مـهينة، دون أن يذكره حتى الذبـاب أو الباعوض. قـرر أخي الانتقـام. فالتحـق بالجيش. تحول بيتنا إلى قـبر مفتوح نعيش فيـه المذلة التي وشحت عائلتنا ولم يتمكن الزي العسكري أن يزرع الأمل في نفوسنا.

كانت الجماعة المسلحة التي انتمى إليها أخي أبعد الناس عن التمرد أو عن رد الاعتبار لأي كان. تدربوا بقساوة، وبرزت معالم الانحراف منذ البدء. فاستعمال القوة وسلب ممتلكات الآخرين وفرض تمييز عنصري بين العسكريين والمدنيين هي علامات غير ذكية في قاموس "رد الاعتبار". لكن الشيء الأكيد الذي أثبته هذه المجموعة هو أن القوة هي صانعة الأحداث التاريخية. والقوة أيها الحفار هي أمران لاغير: المال والسلاح. وماعدا ذلك هراء.

حفرتُ هذا القبر لأولئك الذين حملوا أسلحتهم لترتد ضدهم. وليتحولوا من صانعي المصير إلى ضحايا. من قتلة إلى حشرات تستغيث على مدى سنين عديدة. فكيف سأحترم من حمل السلاح ووشح نفسه بالسيادة والكبرياء والقدرة على السيطرة ليتحول بعد ساعات فقط إلى قتيل وضحية، إلى راكع ساجد، إلى حشرة...

وماهو المصير الذي كان سينتظر المساكين والضعفاء، الذين اختاروا حياة الأنعام، على أيدي من استعمل السلاح ضد الجميع بدون تمييز وبدون هدف...

هو قبر للمنهزمين المدعين الذين استعملوا القوة التي قتلتهم.

القبر الرابع...

حفـرتُه لمسالمين حملوا العنف إلى السـماء وبنوا خيامـهم قرب آلهة مـجهـولة وخيـالات شعـراء الصحـراء. مسالمـون جاؤوا من الدفاتر والكتب، من شـموع باهتة راغبين في إضـاءة الكون. بضعة دفـاتر. بضعـة أقلام. بضـعة كـراسـات وأبيات نارية. كـانوا على صواب حين حلموا بإنهـاء عهد القتلة الأوائل وورثتهم ومسـتعملي القوة المرتدة ضـدهم. فالحلم إما رغبـة أو تيه. لكنهم لم يظلوا عند حدود الحلم. بل خططوا، واسـتعدوا وأعدوا ودفعـوا العشرات إلى الغلط. كيف سيتم القضاء على القوة بالأقلام؟ وكيف ستتم محاربة الآلات الفتاكة بالشعر والسرية السلمية؟

حفرتُ لهم هذا القبر لأنهم ولدوا موتى ولم يذهبوا إلى مقبرتهم وحدهم. بل جـروا معهم إليـها عشـرات الضحايا. ولازال عـجزهم حـتى بعد هزيمتـهم يوزع هنا وهناك. لازال يعـرقل السيـر في كل مكان. فكل قوي له وريث وحيد. أما المنهزمين فلهم ورثة متعددون. كنتُ أسمع عنهم من بعيد، ولم أشاركهم إلا متعة الحلم. واستغربت لسذاجـتهم. فإذا كان المسلحـون النافذون في المواقع الحسـاسة لم يسـتطيعـوا تحـرير ولو كيلومـتـر مربع واحـد، فكيف للحناجـر

والصياح والبذلات الأنيقة أن تغير العقول وتجر الناس إلى المجهول.

اقتنصهم عدوهم كالذباب. وكانت أخطاؤهم ساذجة بقدر سذاجة استراتيجياتهم. فحين يعجز القائد عن التضحية بحياته من أجل الحفاظ على حياة رفاقه، فثمة عجز كبير ولغز أكبر. وحينما تتمكن راقصة مثلي، بابتسامة أو ابتسامتين وبحركات مغرية بالنهدين أو الردفين أن تسكر زعيما، وتحصل بالصدفة على أسرار رفاقه الذين ائتمنوه عليها، فثمة سؤال كبير وتعجب أكبر.

حفرت لهم هذا القبر لأنهم لا يعرفون قدرهم، ولم يعرفوا الإنسان، الذي مجدوه وألهوه، حق المعرفة. فهو يظنون أن الإنسان إما خيِّر وإما شرير، إما معهم وإما ضدهم، إما قوي وإما ضعيف. ولقد أدوا ثمن هذا التفكير غاليا. فالإنسان هو عبور، تحول، عدم اكتمال، تأرجح، لا استقرار، رغبة نامية، قوة نائمة. الإنسان هو انتقال دائما. فأنا مثلا، أيها الحفار، تعاطفتُ معهم، بل تبنيتُ أحلامهم، ولكنني دست على أوهامهم وعلى مصيرهم. فالذي يواجه الموت، إما عليه أن ينتصر وإما أن يموت.

القبر الخامس...

حفرتُه للدعاة الأدعياء. الذين يناصرون الظلمة والظلام، الحجب والحجاب، الستر والستار، الفصل والإنفصال. الذين ينوبون عن خالقهم، ويحملون السلاح ليقتلوا منافسيهم وليتحالفوا مع الأقوياء. الذين يزينون للناس الحياة الأخرى، بينما هم يصنعون مجدهم في الحياة الدنيا. الذين يسحبون البساط من تحت أرجل كل من أراد مقارنة أقوالهم بأفعالهم. الذين يرثون الرسل بدون وثيقة ولا عهد، وبدون سبب ولا مناسبة. الذين يحللون ويحرمون. الذين لا أحد يعلم ماذا يفعلون في سرهم وحينما يختلون بأنفسهم. الذين يشرعون للناس الحياة والموت والمحبة والحقد حسب أهوائهم. الذين يختلط عندهم الجاهل بالعالم. والذين ينبت في أوساطهم كل منادي بالمطلقات وكل مردد للشتائم والوعيد.

حفرت هذا القبر للذين يصنعون الحقيقة بقطع ثياب وخصلات شعر وتمتمات وغمغمات وهمهمات.

حفرت لهم هذا القبر، لأنهم مزورون لإرادة الناس، يبيعون

قوتهم الوهمية لمن يريد أن يشتريها ببعض التنازلات.

أعددتُ لهم قبرا ضيقا وأكثر ظلمة من غيره حتى يعرفوا أية قبور اختاروها للنساء، وأية سجون ظالمة أرادوها قصورا للأنثى رمز الحيوية والمستقبل.

القبر السادس...

حفرتُه لكل اللصوص الذي سرقوا ويسرقون قوت الناس باسم بناء مستقبلهم. للمنهزمين الذين يُمَوِّلون القتلة وورثتهم والمسلحين، الذين يعادون المسالمين احتقارا وانتقاما. ولأنهم عجزوا دوما عن إدانة الأقوياء المسلحين، فقد تبنوا خيار التملق والنفاق وصب الحقد كله على المسالمين الحالمين العاجزين. هم لصوص أنيقون، لا يظهرون إلا في الأبناك والإقامات الفاخرة، ولا يمشون إلا نادرا في أزقة وشوارع البلاد.

القبر السابع...

حفرتُه لنفسي، لأنني أستحق النسيان. فأنا أحب القوة والدهاء. ولم أرحم أبدا أي ضعيف أو منهزم. لذلك أريد تمجيد نفسي وتخليد ذكراي.

أيها الحفار...

أنتَ تذكر تلك الليلة التي سألتني فيها عمن أكون، فجاءوا كالبرق واختطفوني. ولم يتركوا لي الفرصة لأودعك بطريقتي، ولأوصيك على قبوري السبعة. وها أناذي الآن أجيبك بعيدا عنك في مكان قد يحتضن نهايتي. ففي بعض الأحيان تسمح الظروف للعاجزين المنهزمين بالبقاء في قلعة سرية لبعض الوقت، ليزدادوا تباهيا بأنفسهم وعجرفة قبل أن يلقوا مصيرهم المحتوم: الإبادة...».

تأملتْ الأوراق الممتلئة أمامها قرأت بعض الفقرات من هنا وهناك. رقمت الأوراق. ضمت بعضها إلى البعض. طوتها طيتين وأخفت وجهها بين راحتي يديها.

أحست بالجوع ينهك أمعاءها. تناولت موزتين بنهم كبير مشت قليلا في الغرفة. توقفت مرة أخرى أمام خزانة الكتب. تراجعت عن أخذ كتاب أغراها عنوانه. توجهت إلى السرير. استلقت على ظهرها عارية تماما. وضعت وسادة على وجهها وانتظرت النوم.

8

اقتادوها إلى طاولة الاعـتراف في الساحة الكبـرى. عجزت عن توقع مـصيـرها. كل الأنظار مصـوبة نحوها. لاحظت أن الزعـيم لا يشارك في النقـاش الدائر بين المستشـارين. اعتقدت أن الأمـر يعود لعادات هذه الجـماعـة فقد يكون الزعـيم مجرد رمـز لا يملك سلطة القرار ولا حتى توجيه النقـاش في اتجاه ما. حـاولت أن تتخلى عن التفكير في مـا قد يقع لها على أيديهم. حملقت في السـاحة. لم تعد

ترى أحدا. بدا لها المكان خاليا تماما. ساد صمت رهيب. أحست وكأن فساتين طائرة حطت فوقها، فرحت لهذه الهدية الآتية من السماء.ابتسمت ثم ضحكت من أعماق نفسها. تكاثرت الأيادي التي تداعب شعرها وتتلمس وجهها. لم تشعر بأي حرج. تحلقت حولها وجوه مضيئة بدون أجسام. لكن ضوءها يضيء الساحة كلها. فتحت نوافذ وأبواب في سماء المكان. امتلأ الفضاء بالطيور والخيول الطائرة. اصطفت أسماء عديدة أمام الأبواب المعلقة. أسماء دامية وأخرى بيضاء. أسلحة مغلفة بلحم بشري. أصابع موجهة نحو السماء. أثواب قضاة مثقوبة وأثواب محامين مفحمة. شاهدت دبابات حقيقية معاقة في مخالب صقور بيضاء. انفجرت بعض الرتب العسكرية حينما ارتطمت برقصة الخيول الطائرة. ثم فجأة دخلت ذئاب تزحف على بطونها كالأفاعي جارة وراءها أسلاكا كهربائيا ممتلئة برؤوس آدمية انمحت معالمها. حلقت الوجوه المضيئة فوق المكان . امتلأت الساحة بالطيور والخيول الطائرة والذئاب الزاحفة والرؤوس الآدمية التي لا معالم لها والدبابات. ثم انبثقت موسيقى من مكان ما. شعرت برغبة عنيفة في الرقص. تأملت فساتينها. تمايلت قليلا يمينا وشمالا. حركت رجلا إلى

الأمام وأخرى إلى الوراء. ثم بدأت ترقص. تحول رقصها إلى جري. أحست بأن هناك من يريد القبض عليها. ارتطمت بسور الساحة. رفعت رأسها إلى أعلى فشاهدت وجوها سوداء معلقة في رماح حمراء تطل عليها من أعلى. امتلأت الساحة بالأيادي الممتدة لاعتقالها. شعرت بحبال تلتوي حول جسدها وبأياد حجرية تنزع رأسها عن جسمها. رأت الحفار يصرخ في وسط المقبرة. وقفت كل القبور متوجهة نحوه باستثناء قبورها السبعة فقد ظلت متمددة في مكانها جاحظة العيون. وسمعت صوت الزعيم يقول:

- ارفعوا الساحة إلى السماء حتى نستريح.

منشورات "اختلاف"

صدر:

- حقوق الإنسان من سقراط إلى ماركس
- ابستملوجية علوم التربية وعلوم التربية العربية
- الإسلام والعلمانية من وجهة نظر يسارية
- ضرورة الفلسفة
- حدود وممكنات إصلاح التعليم
- الإسلاميون وأمريكا: تحالف ضد أروبا
- اليساريون الثوريون بالمغرب: راهنهم ومستقبلهم
- نسيج الصداقة
- القطب الديمقراطي الحديث: من أجل يسار موحد
- الريف: بين القصر، جيش التحرير وحزب الاستقلال
- مكانة المرأة في الإسلام
- في التربية اللغوية وأنحاء التواصل
- محمد عبد الكريم الخطابي: آراء ومواقف (1926-1963)
- الريف: بين القصر، جيش التحرير وحزب الاستقلال (ط 2)
- الإسلام: الدين والسياسة (نقد فرج فوده للاصولية الإسلامية)
- العصابات الصهيونية:(حقائق تاريخية بالأسماء والأرقام)
- الرفيق أبو خمرة والشيخ أبو نهدة